الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد الصديق بن يحي–جيجل–

كلية الآداب واللغات ,قسم اللغة والأدب العربي
الرقم التسلسلي.....

مذكرة بعنوان:

مظاهر الحياة في بغداد إبان العصر العباسي من خلال شعر ابن الرومي.

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب عربي.

تخصص:أدب قديم.

إعداد الطالبتين:إشراف الأستاذ:

شهيرة غلبي د/ عبد الفتاح جحيش

هالة حداد

أعضاء لجنة المناقشة

- الأستاذ: رؤوف قماش.....رئيسا.
- الأستاذ/د: عبد الفتاح جحيش.....مشرفا ومقررا.
- الأستاذ:رياض بوزنية.....عضوا مناقشا.

السنة الجامعية: 1439–1440هـ/ 2018–2019م

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

بادئ الأمر نحمد الله تعالى ونشكره على

النعمة التي وهبنا إياها نعمة العقل

والذي وفقنا إلى إتمام هذا البحث.

نتقدم بالشكر والامتنان إلى أستاذنا المشرف **د/ عبد الفتاح جحيش**.

على المساعدة التي قدمها لنا

وعلى حسن الاستقبال والتقدير

نشكر كل من ساعدنا في انجاز هذا البحث

وإعداده من قريب أو من بعيد

إلى كل من أعاننا بالكلمة الطيبة أو الدعوة المستجابة حتى وفقنا إلى هذا البحث.

مقدمة

أشرقت مدينة بغداد في التاريخ الإسلامي، ورسمت معالم التاريخ والحضارة على مرِّ العصور، حيث تعدُّ المدينة المدورة بحق أكبر تجربة معمارية قام بإنجازها العرب المسلمون في تاريخ الدولة العباسية، كما أنَّها حملت معاني الأصالة والعراقة والتراث التاريخي الذي ظلَّ مستمرًا حتى الآن، وشهدت هذه المدينة ألوانًا مختلفة في مجال العلوم والآداب والحياة الاجتماعية والثقافية، فازدهرت بغداد وتطورت، ويرجع الفضل إلى اهتمام الخلفاء بالشعراء والكتَّاب والترجمة، فأنشأت المدارس ودور الثقافة والعلم.

وكان الشعر لسان المجتمع العباسي ووسيلته، يعبّرُ عمَّا يعتريه من أحاسيس، ويصور ما يجري من أحداث وتطورات في مجالات الحياة المختلفة، فمن الشعراء الذين برزوا في القرن الثالث للهجرة نجد أبا تمام وأبا العتاهية وابن الرومي...، هذا الأخير قد تناول مظاهر الحياة في المجتمع البغدادي بصفة خاصة والعباسي بصفة عامة، و صور هذا المجتمع تصويرا جذابا مُلمًّا بمختلف مظاهر الحياة التي كانت بارزة آنذاك.

وقد وقع اختيارنا على موضوع "**مظاهر الحياة في مدينة بغداد إبان العصر العباسي من خلال شعر ابن الرومي**"، ففي شعر ابن الرومي الذي برع فيه وأبدع في تصوير مظاهر الحياة المختلفة في بغداد، وأتقن وصف هذه المظاهر بصيغة فنية واعية.

أمَّا سبب اختيارنا لهذا الموضوع فهو فضولنا في التعرُّف على المجتمع العباسي الذي انفتح على الثقافات المختلفة، والغوص في شعر ابن الرومي المنفتح على الحياة من حزنٍ وفرحٍ وصخبٍ ولهوٍ وترفٍ.

والهدف من دراسة هذا الموضوع هو التعمق في عالم ابن الرومي الشعري وتصوير مدينة بغداد من خلال شعره.

ويُعنى هذا البحث بمناقشة الإشكالية التي حاولنا صياغتها كما يلي:

- كيف كانت الأحوال الاجتماعية والسياسية والثقافية والعمرانية لمدينة بغداد في عهد ابن الرومي؟

- وهل استطاع ابن الرومي تجسيد مظاهر الحياة في بغداد داخل شعره؟ وكيف تحقق ذلك في شعره؟

ولكسب الدقة العلمية في هذه الدراسة استعنَّا بمجموعة من المصادر والمراجع ذات علاقة بالموضوع، قِسْمٌ منها يخص الجانب النظري وقِسْمٌ آخر يخص الجانب التطبيقي، نذكر منها: تاريخ مدينة السلام للخطيب

البغدادي، معجم البلدان لياقوت الحموي ومناقب بغداد لابن الجوزي، بالإضافة إلى ديوان ابن الرومي لابن الرومي.

وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن يُقَسم إلى مدخل وفصلين بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة.

أمَّا المدخل فقد كان بعنوان الامتداد التاريخي للعصر العباسي، والفصل الأول خصصناه للجانب النظري تحت عنوان مدينة بغداد كما يراها المؤرخون، حيث تناولنا فيه معنى اسم بغداد والأصول التاريخية لها مع أهم المعالم البارزة فيها، والفصل الثاني خصصناه للجانب التطبيقي فجاء تحت عنوان حياة بغداد كما تجلت في شعر ابن الرومي، تطرقنا فيه إلى مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية إلى جانب المظاهر الأدبية والفكرية.

وأمَّا المنهج المعتمد في هذا البحث هو المنهج التاريخي الاجتماعي الذي وضَّح التأثير المتبادل بين إبداع ابن الرومي وواقعه الاجتماعي والسياسي.

ولا يمكن لأي بحث مهما بلغت درجته العلمية أن يكون خاليا من الصعوبات التي تعترض طريق الباحث في انجاز بحثه، وعلى هذا الأساس فقد واجهتنا صعوبات في الحصول على المصادر القديمة التي تخص مدينة بغداد بالتحديد، ولكن استطعنا تجاوزها بقوة عزيمتنا وإصرارنا على الإلمام وجمع القدر الكافي من المعلومات التي تخدم موضوعنا.

وفي الأخير لا يسعنا إلاَّ أن نتقدم بالشكر والعرفان للأستاذ المشرف الدكتور **"عبد الفتاح جحيش"** الذي تتبَّع معنا مسار هذا البحث حتى آخره، والذي لم يبخل علينا بإرشاداته وتوجيهاته القيمة، ونشكر كل من أسهم في هذا البحث من قريب أو بعيد، على أمل أن يحقق نتائجه المنشودة.

كتبت يوم: الأربعاء 12 جوان 2019م.

المكان: تاسوست/ جيجل.

مدخل: الامتداد التاريخي للعصر العباسي.

تأسست الدولة العباسية على أشلاء الدولة الأموية، التي سعى فيها العباسيون من خلال الحروب التي نشبت ضد بني أمية إلى إحداث التغيير والرفض في الحكم والإصلاح الاجتماعي ومحو حكم بني أمية بالعنف والقوة، فنجد أنَّ مقر الحكم الإسلامي انتقل من بلاد الشام إلى بلاد الرافدين، أي أنَّ الحكم انتقل من بيئة بدوية عربية حقيقية خالصة إلى بيئة امتزجت بصبغة فارسية أعجمية، ولأنَّ الفرس هم الذين استلموا مقاليد الحكم، فاتخذوا منهم الوزراء ومناصب إدارية أخرى، "وكان قيام مُلك بني العباس نتيجة لمقدمات كثيرة، ونهاية لقصة غريبة مثيرة، وخاتمة لأسباب تضافرت للقضاء على دولة الأمويين، ووضع مقاليد الخلافة الإسلامية في أيدي العباسيين"[1]، هذا أدّى إلى اضطهاد الأمويين وتشتيتهم وتفريقهم وسلب الحكم منهم.

ويعدُّ العصر العباسي من أطول العصور الإسلامية الذي امتد إلى خمسة قرون وأصبحت الدولة العباسية رمزا للقوة والحضارة، وتمَّ تأسيسها من "سنة 132هـ إلى سقوط بغداد على يد هولاكو سنة 656هـ"[2]، كما شهدت الخلافة العباسية تقسيمات تاريخية مهمة ارتبطت بالخلافة والحكم السياسي للدولة، فشغلت أذهان العامة والخاصة من الناس، خوفا أن تسقط هيبة الحكم وتتزعزع قوة الدولة، فسعى الولاة إلى بسط السيطرة على الرقعة العباسية وحمايتها من الفتن، فنجد النظام السياسي الذي كان سائدا في الدولة العباسية يحاكي بشكل موضح النظم السياسية والإدارية والفارسية انطلاقا بالحكم المطلق الذي اصطبغ بالطابع الديني، فالعباسيون اتّخذوا من العنصر الفارسي اغلب وزرائهم، هذا ما خلق اضطرابا في الجهاز الإداري للدولة العباسة بعصور عدة، وتقسيمات مختلفة منها ما قسمت حسب العنصر المهيمن في ذلك الوقت بعد أن استعان العباسيون بالفرس للدعوة لقيام الدولة العباسية في بدايتها، وطلب المساعدة من العنصر التركي بعد أن سيطر الفرس على جهاز العباسيين بغرض الحد من قوتهم.

في هذه الفترة جاء جنس آخر جديد على المسرح السياسي داخل الخلافة العباسية يتميز بالقوة والشجاعة والسيطرة، فسابقا كان النزاع قائما بين العرب والفرس فقط، وبمجيء هذا العنصر الجديد أصبح النزاع قائما بين العرب والفرس والترك، ونتيجة لسيطرة العنصر الفارسي على العرب والخلفاء وكثُرت النزاعات والمناوشات بينهم، هذا ما جعل الخلفاء يتجهون لطلب المساعدة من العنصر التركي الذي كان في أوج قوته في تلك الفترة، هذا الأمر

[1]- محمد عبد المنعم خفاجي: الآداب العربية في العصر العباسي الأول، دار الجيل، بيروت، ط1، 1412هـ_1992م، ص 05.

[2]- جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ج2، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، دط، 2013م، ص 385.

أدى إلى هيمنة الأتراك على الفرس وإنهاء سيطرتهم على السلطان ومنه أخذ التاريخ الإسلامي يصطبغ بالصبغة التركية[1].

إنَّ الاختلاف الحاصل بين الباحثين في تقسيم هذا العصر أدى إلى ظهور عدة تقسيمات، فمنهم من قسمه إلى عصرين، وهو ما استقر عليه غالبية الباحثين كالآتي:

1- العصر العباسي الأول

من سنة "132- 334هـ يبدأ هذا العصر منذ أن أعلن أبو العباس السفاح في الكوفة قيام الخلافة العباسية"[2]، إذ نلاحظ أنَّه يمتد من قيام الدولة العباسية إلى استقرار الدولة البويهية "يستمر هذا العهد من عام 247هـ حتى فتح البويهيين لبغداد عام 334هـ"[3] فعرف هذا العصر مرحلة من قوة الخلفاء ووحدة الدولة وازدهارها،كما تميز في مرحلة أخيرة بالضعف والانحطاط، بحيث لم يعد يتمكن الخلفاء من حماية أنفسهم من بطش الفرس، ومن توليهم لشؤون الدولة، فيرى "بطرس البستاني" "أن الفضل في بناء العرش العباسي للفرس عموما، ولأبي مسلم خصوصا؛ فلا غزو أن تصطبغ المملكة العباسية باللون الفارسي"[4]، ومنه فقد سيطر الفرس على الجهاز الإداري والعسكري للدولة العباسية، وقويت شوكة الفرس لَمَّا تولوا مناصب مهمة في الحكم "وقد أعطيت بعض المناصب الهامة كالوزارة إلى الفرس، ولكن عددا كبيرا من الولاة والقواد كانوا عربا في العصر العباسي الأول، وإنَّ كثيرا من أصحاب المناصب في الدولة الجديدة كانوا عربا"[5]، وبعد سيطرة الفرس على الدولة العباسية أدى هذا الأمر إلى خلق النزاعات التي لم تكن قومية، بل كانت بغرض تحقيق الأطماع والمصالح، فتلك النزاعات التي حصلت بين سكان خراسان بالتحديد بغض النظر عن أصلهم، فقد حاولوا الوصول للسلطة والسيطرة على الحكم والجهاز الإداري للدولة العباسية ومحاولة توليهم مناصب عالية داخل الدولة إذ كان أغلبهم من الفرس ورَأَوا بأنه لهم الحق في الحكم، خصوصا وأن كبير القادة هو أبو مسلم الخرساني فارسي الأصل، هذا أدى إلى حصول نزاع قوي بينهم وبين الخلفاء العباسيين، الذين يرون أن الحق في الخلافة هو لسلالة بني العباس لا غير، هذه

[1]- أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج1، كلمات هنداوي، القاهرة، دط، دت، ص 16، 17، بتصرف.

[2]- محمد عبد المنعم خفاجي: الآداب العربية في العصر العباسي، ص 02، مرجع سبق ذكره.

[3]- المرجع نفسه: ص 03.

[4]- بطرس البستاني: أدباء العرب في الأعصر العباسية، دار الجيل، بيروت _ لبنان، دط، 1979م، ص 16.

[5]- ناظم رشيد: الأدب العربي في العصر العباسي، دار الكتاب للطباعة والنشر، موصل_ العراق، دط، 1410هـ_1989م، ص 12.

النزاعات والخلافات التي كانت في تلك الفترة ما هي إلا تكتلات تريد تحقيق أغراض داخل الدولة العباسية كالسيطرة عليها وفرض هيمنتها وسلطتها قبل أن تكون لديها عصبية قبلية[1].

كما ظهر الأتراك في محيط الدولة العباسية، الذين كان لهم بالغ الأثر في تاريخ الدولة والحياة السياسية والاجتماعية؛ فنجد أنهم توغلوا في الدولة بسبب الخلفاء "وأول من استخدم الأتراك في الجيش الخليفة المنصور المتوفى عام 158هـ (...)، وألف المأمون فرقة صغيرة منهم لبسالتهم كانوا بعيدين عن شؤون الدولة وسياستها لميل المأمون إلى الفرس أخواله"[2]، وابتدأ نفوذ الأتراك في خلافة المعتصم "عام 220هـ استقدم المعتصم عددا كبيرا من الأتراك، اشتراهم وبذل فيهم الأموال، وبلغت عدتهم ثمانية عشر ألفا"[3]، كما أنه رفع من شأنهم بعد أن قلّت ثقته بأبناء جلدته والفرس، فكانت أمه تركية وبهذا فضّل الأتراك على غيرهم من الموالي "كان يرى فيهم مكملين لأبهة الخلافة، وكان معجبا بشجاعتهم وفروسيتهم"[4]، وقد تمكن الأتراك من بسط الهيمنة على الخلافة العباسية والتغلب على الفرس واضطهادهم للعرب "وبذلك انتقلت سياسة الدولة من أيدي الفرس إلى أيدي الأتراك، وعلا شأن هؤلاء حتى كان لهم النفوذ والسيطرة"[5]، مما أدى إلى استحواذ العنصر التركي على مناصب مهمة داخل أنظمة الخلافة العباسية، وبعد مقتل المعتصم زاد كره العرب للأتراك، فهذه الحادثة الشنيعة أدّت إلى تفاقم النزاع بين الأتراك والعرب، فنجد الأتراك سلكوا طريق السلطة والنفوذ واستحوذوا على الحكم، كما أنَّ الأتراك "يكرهون الفرس والعرب، وهم أنفسهم ليسوا في وفاق بعضهم مع بعض، وهم لا ينقطعون عن المؤامرات والدسائس"[6]، وفي وفي ظل هذه الظروف السياسية المحتدمة تقلصت مساحة الدولة العباسية، وانفصلت عنها الكثير من الدويلات وهذا حال العصر العباسي الأول.

2- العصر العباسي الثاني

تبدأ هذه الفترة "من عام 334هـ وتنتهي 656هـ"[7]، ويسمى بعصر الدول والإمارات فهذه التسمية راجعة بسبب تكوين دويلات في مختلف الدولة العباسية، إذ استقلت كثير من البلاد عن خلفاء بغداد، وأهم هذه

[1]- محمود شاكر: التاريخ الإسلامي- الدولة العباسية- ج1، المكتب الإسلامي، بيروت، ط6، 1421هـ- 2000م، ص 30.

[2]- محمد خفاجي: الحياة الأدبية في العصر العباسي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2004م، ص 13.

[3]- المرجع نفسه: ص14.

[4]- محمد زغلول سلام: الأدب في عصر العباسيين، منشأة المعارف، الإسكندرية، دط، دت، ص 36.

[5]- حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجيل، بيروت- لبنان، ط1، 1986م، ص 520.

[6]- أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج1، ص 19، مرجع سبق ذكره.

[7]- محمد عبد المنعم خفاجي: الحياة الأدبية في العصر العباسي، ص 19، مرجع سبق ذكره.

الدول المستقلة: الدولة الطولونية بمصر(254هـ-292هـ)، وفي بلاد الفرس وبلاد ما وراء النهر عدة دويلات نذكر منها: الدولة الظاهرية بخراسان(205هـ-259هـ) والدولة السامانية في ما وراء النهر(261هـ-289هـ)، والدولة الصفارية بفارس(254هـ-290هـ)، وقد تميزت هذه الفترة بتسلط الدويلات ووصولها لسُدة الحكم[1].

أ- الدولة البويهية: ابتدأ الدور الثاني للخلافة العباسية في عهد الخليفة المستكفي بالله، الذي تولى الخلافة بعد أن قبض القائد توزون على الخليفة المتقي بالله "20 ربيع الأول سنة 329- 20 صفر سنة 333"[2]، فعاشت الخلافة العباسية حالة من الاضطراب والضعف أدى إلى انهيار جدران الحكم فيها.

كانت دولة البويهيون أول من تولوا الحكم، إذ امتدت هذه الفترة من سنة 334هـ إلى سنة 347هـ، وفي هذه الفترة تولى الخلافة العباسية خمسة خلفاء وهم المستكفي والمطيع والطائع والقادر والقائم، حيث يرجع أصل الديلميين إلى بلاد الديلم أو بلاد الجيلان وتقع في الجنوب الغربي من شاطئ بحر الخزر، إذ تميز أصحاب هذه الدولة بالنفوذ والسيطرة على أغلب البلاد المجاورة لها وبدأت بالسير حتى وصلت إلى العراق في 11جمادى الأولى سنة 334هـ، فنجد الخلافة بيد المستكفي بالله أما السلطة فأصبحت تحت سيطرة البويهيين وأصبح أمر الخلفاء ظاهرا وشكلا لا قيمة لهم، وأصبح منصبهم فخريا فقط، يتحكم فيهم بنو بويه كيفما شاؤوا وأصبح أمر الخليفة العباسي محتفظا به للظهور أمام العامة، وتمثيلهم في المراسم الدينية[3].

ويشير "ابن الأثير" إلى نسب البويهيون، فيقول: "وهم عماد الدولة أبو الحسن علي وركن الدولة أبو علي الحسن، ومعز الدولة أبو الحسين أحمد، أولاد أبي شجاع بويه"[4]، فالبويهيون في الواقع من قبائل فارسية لا علاقة لهم بالعرب "رجال هذه الدولة وأنصارها الديلم من الجيلان وراء خراسان، ولكن ملوكها آل بويه من الفرس... وهم من الشيعة العلوية"[5]، فيتضح أنَّهم من شيعة الفرس الذين سيطروا على الحكم في الدولة العباسية ورغم هذا لم يحاولوا القضاء على الخلافة، وأبقوا الخلافة لبني العباس، وانفرد البويهيون بالسلطة الإدارية والعسكرية.

---

[1]- المرجع السابق:ص 18.

[2]- أبو أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تح: سيد كسروي حسن، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1424هـ- 2002م، ص 29.

[3]- محمد الخضري بك: الدولة العباسية- محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية- مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 1424هـ- 2003م، ص 343- 353.

[4]- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تح: عمر عبد السلام تدمري، ج7، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، دط، 2012م، ص 05.

[5]- جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ص 639، مرجع سبق ذكره.

وقد تطورت دولة البويهيين إلى قبيل منتصف القرن الرابع الهجري، حيث أقام آل بويه وصايتهم على الخليفة العباسي في بغداد سنة 334هـ إلى منتصف القرن الخامس الهجري تقريبا، فبرغم أنَّ دينهم كان يعتمد على المذهب الشيعي إلا أنَّهم لم يحاولوا القضاء على المذهب السنيّ بل حافظوا عليه، وهذا لا يمنع من أنَّهم حاولوا نشر المذهب الشيعي وأفكاره في المشرق، فلم يعد للخلافة العباسية نفوذ على هذه الدويلات والإمارات، واستطاع البويهيون ــ في وقت قصير ــ أن يصلوا إلى مراكز مهمة في الدولة العباسية وهذا راجع لشجاعتهم وقوتهم العسكرية[1].

ويبدأ هذا العصر "باستقرار الدولة البويهية سنة 334هـ وينتهي بدخول السلاجقة بغداد سنة 447هـ"[2]، وقد كان أول من تولى الحكم من سلالة بني بويه هو علي بن بويه في عهد الخليفة المستكفي بالله، وهنا يتضح دور الخليفة العباسي وسلطته المحدودة في ظل الدولة البويهية، وأنَّ ما بقي في يد الخليفة العباسي هي الأمور الدينية فقط، مُبعدا عن أمور الحكم والسياسية، ولم يقفوا عند سلب ونهب نفوذ الخلفاء بل تجاوزوا حد التدخل في شؤونهم وأمورهم الخاصة.

وقد انتقلت السلطة الفعلية إلى أمير الأمراء، بعد أنْ أتمُّوا سيطرتهم المحكمة على أرجاء الدولة العباسية، فبلغت الوزارة في عهدهم أوج قوتها، واهتموا في اختيار الوزراء وبناء دولة أكثر صلابة، وعاش البويهيون في عظمة وكان وزراؤهم يتمتعون بالكثير من الامتيازات.

وبقي البويهيون ممسكين بزمام الأمور لفترة طويلة من الزمن، يمارسون بطشهم على العامة من الناس، وسيطرتهم الجبارة على الخلفاء والعباسيين وحاولوا الاستفراد بالحكم بينهم وعزل الخلفاء العباسيون عن الحكم.

ب- الدولة السلجوقية: بعد أن نال الضعف والهوان من جسد الدولة العباسية، واضطراب الحكم فيها بفعل الخلافات القائمة بين بني بويه، استعان الخليفة بالسلاجقة ليخلصوه من بطش وظلم البويهيين الذي انتشر في البلاد، "فكاتب الخليفة أبا طالب محمد ابن ميكال سلطان الغُزِّ، المعروف: بطغرلبك وهو بالري يستنهض في القدوم"[3]، فتمكن السلاجقة بذلك من حماية الدولة العباسية من المد الشيعي البويهي، "ثم في سنة

[1]- نبيلة حسن: تاريخ الدولة العباسية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1994م، ص 08، بتصرف.

[2]- جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ص 634، مرجع سبق ذكره.

[3]- جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي: تاريخ الخلفاء، دار المناهج للنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط2، 1434هـ- 2013م، ص 642.

سبع وأربعين وأربعمائة، دخل فيها ملك طغرلبك بغداد، وهو أول ملوك السلجوقية، لبلاد العراق"[1]، وإذا ما تتبعنا الأصول الأولى للسلاجقة نجدهم ينتمون إلى سلالة آل سلجوق، حيث أطلقوا عليهم هذا الاسم نسبة إلى جدهم سلجوق بن دقاق، فكان أصلهم من قبيلة قنق الغزية التركية وهي أحد قبائل الغُزّ الأربعة والعشرين، حيث تقع في بلاد تركستان، وكان دقاق هذا له مكانة عالية ومرموقة داخل عشيرة الغُزّ، حيث ترقى وأصبح وزيرا للخاقان بيغو أحد خانات تركستان وكانت أغلب القرارات والأوامر تصدر من طرفه، فبقي السلاجقة يعيشون في هذه القبيلة إلى أن حدث سوء تفاهم بينهم وانتقلوا من هذه القبيلة إلى مكان آخر.[2]

كما ذكرهم "ابن الفقيه" في كتابه ووصف بعض المدن وذكرها "منهم بادية يحلون ويرتحلون وينتجعون الغيث ويتبعون الكلأ كما تفعل البوادي في بلاد الإسلام"[3]،كانوا مهتمين بالقتال، أشاوس في الحروب وأكثر سلاحهم السيوف، اتصفوا بالحكمة وعِلمٍ بأحوال الترك، وبدأ السلاجقة بالنزوح من موطنهم الأصلي إلى بلاد ما وراء النهر، وذلك بسبب ازدحام ديارهم وضيق مراعيهم "ففي سنة 375هـ/1985م استقرت هذه القبائل في بلاد ما وراء النهر في موضع قرب بخارى"[4]، وبالرغم من أنَّهم نزحوا إلى هذه المنطقة هروبا من الأوضاع المزرية التي كانوا يعيشونها في تركستان، كما واجهوا هناك اصطدامات مع الغزنويين الذين كانوا يسيطرون بقوة على هذه المنطقة، فقاموا بطردهم منها بعد عدة مواجهات ومعارك بينهم.

بعد الهزائم التي حلّت بالسلاجقة من طرف الغزنويين والإطاحة بقوادهم، قاموا في آخر المطاف باختيار طغرل بك ليكون قائد عليهم، فبرغم صِغرِ سِنِّهِ إلا أنَّه كان يتمتع بحبه لقومه ويتحلى بالقوة والشجاعة وكان يتميز بفروسيته الدقيقة في الحروب، فرغِب بتحقيق أهداف السلاجقة وهو تأسيس دولة قوية وتوسيع أراضيها في العالم الإسلامي بأكمله، وفي سنة 421هـ/1030م توفى السلطان محمود الغزنوي، فقام السلاجقة باستغلال هذه الفرصة، ووحدوا صفوف جيشهم وأعدوه وأصبحوا جاهزين لحل الهجوم على الغزنويين، وبسطِ نفوذهم وتوسيع أراضيهم، حتى أصبح معظم إقليم خراسان خاضعا لنفوذهم وسلطتهم السلجوقية، وانتهى الصراع السلجوقي الغزنوي بانتصار السلطان طغرل بك عليهم، ودارت معارك جديدة بين مسعود الغزنوي والسلاجقة، حيث كان في كل مرة ينهزم فيها من قبل طغرل بك وكانت معركة سرخيس هي المعركة الفاصلة في تاريخ السلاجقة، حيث

[1]- ابن كثير عماد الدين إسماعيل بن عمر القرشي الشافعي: البداية والنهاية، ج1، بيت الأفكار الدولية، لبنان، دط، 2004م، ص 1822.

[2]- محمد الخضري بك: الدولة العباسية، ص 386، مرجع سبق ذكره.

[3]- الهمذاني: البلدان، تح: يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت- لبنان، ط1، 1426هـ- 1996م، ص 643.

[4]- محمد عبد العظيم أبو النصر: السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط2، 2001م، ص 34.

استولوا بعدها على خراسان وأصبحت تابعة لسلطتهم وكان هذا سببا لقيام دولتهم، وهكذا أصبح للسلاجقة كيان سياسي ورقعة جغرافية كبيرة من الأرض، حيث تعتبر سنة 429هـ/1037م هي نقطة بداية لقيام دولة السلاجقة[1].

بعد الانتصارات التي حققها السلطان طغرل بك على الغزنويين وأخذه لمنطقة خراسان وإعلانه عن قيام دولة السلاجقة، هنا بدأ السلاجقة يرون طغرل بك بأنَّ له الحنكة والذكاء والكفاءة لتسيير شؤون السلاجقة ورئاستهم، حيث نجح في بناء دولة قوية ذاع صيتها في كل الأنحاء وأصبح يحسب لهم الآخرون حسابا، فاعتبروه القوة الجديدة المسيطرة على المنطقة.

في هذه الفترة سمع الخليفة العباسي القائم بأمر الله بما فعله السلطان السلجوقي طغرل بك من نجاحات وانتصارات ضد الغزنويين حيث أعجبه ذلك الأمر فقام بإرسال مبعوث للسلطان طغرل بك والذي يحمل معه اعتراف من الخليفة بدولة السلاجقة، ومن هنا بدأت علاقة السلاجقة بالخلافة العباسية تتوثق وتترابط، فخصوصا بعدما شهدت الدولة السلجوقية توسعات وانتصارات وتقدم كبير كانت في المقابل بغداد تعُج بالاضطرابات والفتن داخل الخلافة العباسية.

لقد تميز السلاجقة باعتناقهم للدِّين الإسلامي بعد استقرارهم في بلاد ما وراء النهر، وذلك نتيجة لمجاورتهم للسامانيين الذين كانوا يعتنقون الإسلام وفقا للمذهب الحنفي.

استقر طغرل بك في بغداد، وصار الأقرب من الخليفة، وقد أصبح شأن السلاجقة ظاهرا، وقوتهم شديدة، فواصل السلاجقة ممارسة قوتهم وسياستهم التوسعية بعدما كسبوا تأييد الخليفة العباسي لهم واعترافه بدولتهم، وكان الهدف وراء هذا التوسع هو القضاء على حكم البويهيين والمذهب الشيعي الصفوي، الذي بدأ بالانتشار بشكل واسع في تلك الفترة بسبب الدولة الفاطمية الشيعية.

كما أنَّه إلى جانب هذه الأحداث والأوضاع التي كانت تسود العالم الإسلامي بشكل عام وبغداد بشكل خاص، فإنَّ الوضع في بغداد كان متدهورا ومزَعزعا، تشوبه حالة من الفوضى وعدم الاستقرار وهذا ما سهل

[1]- المرجع السابق: ص 45-51، بتصرف .

وبسط الطريق أمام السلاجقة لدخولها "حيث تعتبر سنة 447هـ/1055م هي السنة الفاصلة في تاريخ السلاجقة، ففي هذا العام دخل طغرلبك العراق"[1].

كما حدث في هذه الفترة فتنة بين الأمراء البويهيين وأصبح هناك تنافس بينهم، وكان البساسيري أول من بدأ بنشر الفتن داخل الدولة البويهية والخلافة العباسية، حيث حاول أن يغير المذهب الديني من السني إلى الشيعي وذلك من خلال التواصل مع خليفة الدولة الفاطمية الشيعية وعقد الاتفاق معه، ولهذا فقد شكل خطرا كبيرا على الخلافة العباسية، هنا بدأ الخليفة العباسي يتحرك ويكاتب السلطان السلجوقي لمساعدته في القضاء على هذا الخطر الذي يحاول ضرب الخلافة العباسية من خلال دينها السني.

وبعد انتهاء هذه الأحداث تفرغ السلطان طغرل بك للتفكير في كيفية القضاء على البساسيري كبير قادة الترك في بغداد ونصب كمينا له "وسار السلطان طغرلبك في أثرهم ولم يشعر دُبيس بن مَزْيد والبساسيري إلاّ والسّرية قد وصلت إليهم ثامن ذي الحجة عن طريق الكوفة (...) فأسر أصحابه (...) وحمل رأسه إلى السلطان"[2].

وتدعيما للتعاون وتوطيد العلاقات بين الدولة العباسية والسلاجقة تم عقد زواج طغرل بك من بنت الخليفة "ثم دخلت سنة أربع وخمسين وأربعمائة فيها تزوج طغرلبك ببنت الخليفة القائم وكان العقد في شعبان"[3] هذا ما كان سببا في تزايد الروابط الأسرية وتوثيقها.

ويشير "ابن الأثير" أنَّ طغرل بك رجع إلى الري بعد ذلك فمرض هناك وتوفي "يوم الجمعة ثامن شهور رمضان وكان عمره سبعين سنة تقريبا وكان عقيما لم يلد ولدا"[4]، وعليه فإن السلطان طغرل بك قد حقق الوحدة وضمن الأمن والاستقرار وحافظ على مكانة الخليفة العباسي.

ثم اعتلى السلطان ألب أرسلان ابن داود بعد وفاة عمه طغرل بك عرش السلاجقة، فرحب به الخليفة اشد الترحيب ولقبه "السلطان المعظم عضد الدولة وتاج الملّة أبو شجاع ألب أرسلان محمد بن داود"[5] إلا أنَّ ألب

[1]- أبو النصر: السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، ص 61، مرجع سبق ذكره.

[2]- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج8، ص 160، 161.

[3]- أبي الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج2، المطبعة الحسينية المصرية، ط1، دت، ص 181.

[4]- المرجع نفسه: ص 183.

[5]- ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ج16، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، دط، دت ص 81.

أرسلان لم يهنأ بالحكم بسبب الفتن التي كانت تشن عليه من أقاربه، ولكن ألب أرسلان كان فطنا وذكيا لتلك الفتن فجهز جيوشه وحاول التخلص منهم وهكذا استطاع القضاء على كل أعدائه الذين حاولوا سلب العرش منه واستمر في توسيع أراضي الدولة السلجوقية، وبدأ في التفكير في كيفية الحصول على دعم من الخليفة القائم بأمر الله "عمل ألب أرسلان كل ما في وسعه، فقد كان يدرك أن زواج عمه طغرل بك من ابنة الخليفة العباسي قد تم دون رضا الخليفة، فبادر في كسب رضا الخليفة إلى إرجاع ابنته إلى بغداد بعد أن منحها خمس آلاف دينار، لتستعين بها في العودة"[1]، فبهذه المبادرة التي قام بها السلطان ألب أرسلان استطاع كسب دعمه وأمر الخليفة القائم بأمر الله أن تُكتب على شرفه خطبةً تكريما لما فعله ألب أرسلان وعُظِم شأنه.

توفي ألب أرسلان "في 6ربيع الأول سنة 465هـ"[2] ودفن في مرو، فخلّف بعد وفاته دولة موحدة قوية، وتلاه ابنه ملكشاه "ولى السلطنة بعده ولى عهده السلطان جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه"[3].

عكست فترة حكمه الاستقرار وتحسن الأوضاع المعيشية، وبوفاته "انفرط عقد الدولة السلجوقية، وتمزقت وحدتها وقوتها (...) وانحلت الدولة ووقع السيف، وكُثْرَةِ النزاع بين أفراد البيت السلجوقي"[4]، وأخذت الدولة تفقد قوتها ومكانتها العظيمة وهيبتها لهذا فقد "انقسم السلاجقة ولم تعد دولتهم تخضع لسلطان واحد، فكان هناك سلطان في أصفهان وآخر في الري وفقدَ البيت السلجوقي سطوته وهيبته، فواجهته أخطار خارجية مثل الحروب الصليبية مما أدى إلى انحلالها وزوالها في النهاية"[5].

فشهدت الخلافة العباسية في أواخر عهدها محطات مهمة في تاريخها تميزت بالانتعاش والركود والقوة والضعف أدى في الأخير إلى انحلالها وزوالها وإنهاء حقبتها.

[1]- أبو النصر: السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، ص 81، مرجع سبق ذكره.

[2]- محمد الخضري بك: الدولة العباسية، ص 398، مرجع سبق ذكره.

[3]- المرجع نفسه: ص 398.

[4]- أبو النصر: تاريخهم السياسي والعسكري، ص 111، مرجع سبق ذكره

[5]- المرجع نفسه: ص 111.

الفصل الأول: مدينة بغداد كما يراها المؤرخون.

1- مفهوم المدينة.

2- معنى اسم بغداد.

3- الأصول التاريخية لمدينة بغداد.

4- سبب اختيار الموقع لمدينة بغداد.

5- بناء مدينة بغداد.

6- معالم مدينة بغداد.

1- مفهوم المدينة

المدينة هي وحدة اجتماعية واقتصادية وثقافية وسياسية وعمرانية، تنمو وتتطور في إطار مكاني معين، كما أنَّها تعتبر تجمعا بشريا كثيفا، أوجدها الناس لتكون في خدمتهم وتلبية مصالحهم، وتساعدهم على ضمان العيش المترف والسهل، فذهبوا في تشكيلها على مقاسهم الذي يناسبهم فأبدعوا في تسميتها ونحت هندستها.

أ- مفهوم المدينة لغة:

الباحث في المعاجم اللغوية لا يعثر على فروقات كثيرة لمعنى المدينة، وإن وجدناها فإنَّها تختلف اختلافا طفيفا من معجم لآخر، إمَّا يكون بالنقصان أو بالزيادة، وبهذا لا نجد ضرورة لذكره.

فنجد "ابن منظور"أورد في معجمه "لسان العرب" معنى المدينة في قوله: ""مَدَنَ" بالمكان: أقام به، فعلٌ مُمات، ومنه المدينة، وهي فعلية، وتجمع على مَدَائِن بالهمز، و مُدْنٍ ومُدُنْ بالتخفيف والتثقيل"[1]، كما ذكر في تعريف آخر للمدينة بأنَّها: "الحصن يُبْنى في أُصْطُمَّةِ الأرض، مشتق من ذلك. وكل أرض يُبْنى بها حصن في أُصْطُمَّتِهَا فهي مدينة"[2].

كما ذكر "الفيروزآبادي" في قاموسه "المحيط" لاسم المدينة "المدينة للحصن يُبنى في أُصْطُمَّةِ أرض، ج: مَدَائِن ومُدُنٍ ومُدْنٌ. ومَدَنَ: أتاها والمدينة: الأمة. ومَدَّنَ المِدَائِن تمدينا: مَصَّرَهَا"[3]، كما أضاف في تعريف آخر يوضح معنى المدينة إذ يقول: "مدين قرية شعيب عليه السلام، والنسبة إلى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم: مدنيٌّ، وإلى مدينة المنصور أصفهان وغيرها: مدنيٌّ"[4].

وقد تطرق أيضا "الجوهري" في معجمه "الصحاح" إلى تعريف المدينة فذكرها "أنَّها مَفْعِلَةٌ من دِنتُ، أي، مَلَكْتُ. فلان مَدَّنَ المِدَائِنَ، كما يقال مَصَّرَ الأمصار. وسألت أبا علي الفسويُّ عن همز مدائن فقال فيه قولان،

---

[1]- ابن منظور أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري : لسان العرب، مج14، دار صادر، بيروت- لبنان، ط6، 2008م، (مادة مدن)، ص 40.

[2]- المرجع نفسه: ص 40.

[3]- الفيروزآبادي مجد الدين محمد بن يعقوب: قاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1425هـ- 2004م، ص 1242.

[4]- المرجع نفسه: ص 1242.

من جعله فعيلة من قولك: مَدَنَ بالمكان، أي: أقام به همَزَه؛ ومن جعله مَفْعِلَةٌ من قولك: دِينَ، أي: مُلِكَ، لم يهمزْه"[1].

وأشار "الفراهيدي" في معجم "العين" إلى معنى المدينة فقال: "مَدَنَ: المدينة فعلية تهمز في الفعائِل، لأن الياء زائدة ولا تهمز ياء المعايش لأن الياء أصلية"[2]، كما ذكر في تعريف آخر "والمِدِينَةُ اسم مدينة الرسول عليه السلام خاصة، وبالنسبة إلى المدينة مَدَنِيٌّ للإنسان، وحمامة مَدِينِيَّةٌ، فُرِّقَ بين الإنسان والحمامة"[3].

في حين ورد لنا في المعجم "الوسيط" الذي من الممكن أن نقول أنَّه أَلَمَّ بجميع شتات معنى المدينة، في قوله: "مَدَنَ فُلانٌ مُدَونًا: أتى المدينة، تَمَدَّنَ: عاش عيشة أهل المدُن وأخذ بأسباب الحضارة، "تَمَدْيَنَ": عاش عيشة أهل المدن وتنعَّمَ وأخذ بأسباب الحضارة، "المدَنِيَّةُ": الحضارة واتساع العمران"[4].

من خلال استعراضنا لهذه التعريفات اللغوية نجد أنَّ هنالك توافق أشارت إليه بعض المعاجم العربية، فقد اتضح أنَّ كل المواضيع التي أطلقت على لفظ "المدينة" مرتبط بالاستقرار والإقامة في المدينة ومنه يُعرفُ أنَّ المدينة هي المكان الذي يوفر الاستقرار لسكانه، وتعني كذلك حضارة الإنسان ومتطلباته.

ب- مفهوم المدينة اصطلاحا:

تعدّدت مفاهيم وأسس المؤرخين في تحديد دقيق لمفهوم المدينة اصطلاحا، إذ يُعرّفه "ابن خلدون" في مقدمته بقوله: "الإنسان مدنيٌّ بالطَّبعِ، أي: لابُدَّ لهُ منَ الاجْتماعِ الذي هو المدينةُ في اصطلاحهم، وهو معنى العُمْرَانِ"[5]، إذ يربط ابن خلدون مصطلح المدينة بالتطور العمراني والتقدم الحضاري.

[1]- الجوهري أبي نصر إسماعيل بن حماد: الصحاح، تح: محمد محمد تامر، دار الحديث، القاهرة، دط، 1430هـ- 2009م، ص 1069.

[2]- الفراهيدي الخليل بن أحمد: العين، تح: عبد الحميد الهنداوي، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1424هـ- 2002م، ص 127.

[3]- المرجع نفسه:ص 127.

[4]- إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، ج1، المكتبة الإسلامية، تركيا، دط، دت، ص 859.

[5]- عبد الرحمان بن محمد بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، تح: عبد الله محمد الدرويش، ج1، دار يعرب، دمشق- سوريا، ط1، 1425هـ- 2004م، ص 137.

ويعرفها الجغرافيون في "مدرسة اللاندسكيب" بأنَّها "حقيقة مادية مرئية من اللاندسكيب، يمكن أن نحدِّدها بإحساساتنا الخارجية، ويمكن أن نتعرف على المدينة بمظهر مبانيها وكتلتها وطبيعة شوارعها ومؤسساتها ومصانعها"[1].

إنَّ المؤلفين العرب، من جغرافيين ومؤرخين وبلدانيين، قد أسهموا في تحديد معايير خاصة للمواضع التي أطلق عليها اصطلاح "المدينة" فنجد الجغرافي المقدسي في نهاية القرن الرابع الهجري، وضع في كتابه كل الآراء المختلفة حول مصطلح المدينة، "إذ يذكر أن المِصر في رَأْي الفقهاء يُقْصَدَ به (كلُّ بلد جامع تقام فيه الحدود ويحلُّه أمير، ويقوم بنفقته ويجمع رستاقه) ويبدي وجهة نظره معقِّبًا على هذا التحديد، بأنَّ المصر كلُّ بلد يحلُّه السلطان الأعظم ويجمع فيه الدواوين وتقلد منه الأعمال"[2].

يسعى الباحثون إلى تصنيف المدن حسب نوعية النشاط الغالب عليها، وحسب هيئتها، فهنالك تصنيف تجاري واقتصادي وزراعي وغيرهم، كما يعتمدون على وضع معايير معينة تميز المدينة كمركز عمراني وحضري من خلال رؤية محددة أو منهج تعتمد عليه في التحديد، "فتكشف لنا أوصاف الجغرافيين للمدن في عصور متلاحقة عن مظاهر التغير التي تحدث فيها، سواء كان هذا التغير تطورًا لعمران المدينة وازدهارها، أو انحدارًا وتخلفًا، ربما يؤدي بها إلى التحول من منزلة المدينة إلى البلد أو القرية، وربما ينتهي بها الحال إلى الإندراس، ويرتبط هذا التغير والتبدل بعوامل مختلفة سياسية واقتصادية واجتماعية منها ما يؤدي إلى ذبول بعض المدن واندراسها، ومنها ما يساعد على بقائها واستمرارها"[3].

إنَّ تعريف المدينة مرتبط بالتطور الحضري والعمراني للمنطقة، ووجود مراكز مهمة للمدينة من هياكل ومباني تضم المساجد والمدارس والأسواق...، إلى جانب الأنشطة المتنوعة من تجارة وصناعة وزراعة.

2- معنى اسم بغداد

مدينة بغداد من المدن التاريخية القديمة، قارعت الأحداث والتغيرات عبر مختلف الأزمان، ومن المعروف عنها أنَّها تزخر بالكثير من المعالم الحضارية والتاريخية فذاع صيتها في الأفق، مُشكّلة لنا موطنا بشريا يعود تاريخه إلى العهد الآشوري، وصفها عدد كبير من المؤرخين والباحثين ورسموا هندستها وسجلوا حضارتها، فكانت من أعظم

[1]- جمال حمدان: جغرافية المدن، عالم الكتب، القاهرة، ط2، دت، ص 09.

[2]- عبد الجبار ناجي: دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت- لبنان، ط1، 2001م، ص 20.

[3]- محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، عالم المعرفة، دط، 1988م، ص 21.

المدن في العالم هندسةً ودقةً وإحكامًا، احتوت العلماء والدارسين بمختلف الثقافات من رياضيين وفلاسفة وشعراء وموسيقيين.

اختلف المؤرخون والباحثون حول معرفة أصل تسمية بغداد التاريخية، وقد حاولنا أن نذكر أهم الروايات والآراء في أصول هذا الاسم كما وردت في المصادر التاريخية، أهم الأسماء التي أُطلقت على مدينة بغداد والتي تعدّدت واختلفت صياغةً ومعنًا.

منهم من يرى بأنَّه "قد ورد اسم بغداد في وثائق تاريخية وأثرية ترتقي إلى أصول قديمة سبقت الميلاد، منها وثيقة قانونية من عهد حمورابي، وورد ذكر إقليم بغدادي في حجر من أحجار الحدود الكشية، كما ورد الاسم في إخبار حرب الملك الآشوري نرارى الثاني"[1].

كما ذكر عدد آخر من الباحثين أنَّ أصول تسميتها "يرجع أن يكون أصل كلمة بغداد آرامي وأول من قال بهذا يوسف غنيمة، الذي ادعى أنَّ اسم بغداد مؤلف من كلمتين من (ب) المقتضبة من كلمة (بيت) عند الآراميين، ومن (كدادا) بمعنى غنم أو ضان، فيكون مفاد بكداد مدينة أو بيت أو دار الغنم والضان"[2].

كما ذكر الجغرافي "ابن رسته" أنَّ "بغداذ وبغذاذ اسم موضع كانت في تلك البقعة من قبل زعموا أنه كان موضعا للأوثان والأصنام في الدهر القديم، وهي أرض بابل وبابل أقدم هذه المواضع كلّها وكانت الملوك الأوائل تنزل بها من قَبْلُ ويقال أنَّ منها تفرَّق ولد نوح عليه السلام"[3].

وقد ورد أيضا اسم "أرض واقعة قرب بغداد في حجر حدود يعرف باسم "ميشو" يرجع إلى القرن الثاني عشر ق.م وقد عثر على هذا الحجر طبيب أوروبي في سنة 1780م قرب إيوان كسرى"[4].

[1]- طاهر مظفر العميد: بغداد مدينة المنصور المدورة، إشراف: ناجي معروف، رسالة مقدمة للحصول على رسالة الماجستير، مطبعة النعمان، النجف، دط، 1287هـ- 1967م، ص 14.

[2]- المرجع نفسه:ص 14.

[3]- أبي علي أحمد بن عمر ابن رسته: الأعلاق النفيسة، مطبعة بريا، ليدن، دط، 1892م، ص 108.

[4]- مصطفى جواد وأحمد سوسة: دليل خارطة بغداد المفصل في خطط بغداد قديما وحديثا، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد، ط1، 1378هـ- 1957م، ص17.

كما أنَّه تم العثور أيضا على "حجر حدود من زمن الملك الكشي (مردوخ بلادان الأول) يرجع تاريخه إلى القرن الثاني عشر ق.م أيضا ورد فيه ذكر مواضع في مقاطعة (بكدادي)"[1]، كما تم العثور كذلك على وثيقة ذكر فيها اسم بغداد "وجدت في نينوى يرقى تاريخه إلى القرن السابع ق.م"[2].

إنَّ الموضع الأصلي لمدينة بغداد يرجع إلى العهد الساساني والأصل في التسمية راجع إلى اللغة البابلية، فيرى بعض الباحثين أنَّ أصل كلمة بغداد كلداني مأخوذ من كلمة "بلدادا" وهو اسم إله من الآلهة الكلدانية، فكل هذه الآراء لا تعني أنَّ موضع بغداد قديم، بل هي مدينة عربية مستحدثة في الإسلام بنيت في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور الذي قام بتأسيس معالمها ووضع حجر الأساس لها، وكان يفضل تسميتها بمدينة السلام لتجنب الوقع بالشرك، والسلام هو الله وبذلك يكون معنى اسم بغداد بمدينة الله.[3]

وقد أشار بعض المؤرخين إلى أنَّها "تحريف (بعل داد) أي مدينة الإله الشمس، ولعلها بنيت لعبادة البعل (الإله الشمس) فسميت باسمه"[4].

وإذا ما اتجهنا إلى الفرس نجدهم يفسرونها على عاداتهم ويرجعونها إلى أصل فارسي "وقيل هي اسم فارسي معرّب على "باغ دَاذوَيه" لأنَّ بعض رقعة مدينة المنصور كان باغًا لرجل من الفرس اسمه داذويه"[5].

ويقول "اليعقوبي "ولم تكن بغداد مدينة في الأيام المتقدّمة، أعني أيام الأكاسرة والأعاجم، وإنما كانت قرية من قرى طسوج بادوريا"[6].

وذكر "البغدادي" عن معنى اسم بغداد فقال: "بغ بالفارسية صنم، وداد عطية"[7].

كما ذكر أنَّ "هذا الاسم كان يعرف به الموضع قديما قبل أبي جعفر المنصور"[8].

---

[1]- مصطفى جواد وأحمد سوسة: دليل خارطة بغداد، ص 17، مرجع سبق ذكره.

[2]- المرجع نفسه: ص 17.

[3]- عبد الجبار ناجي: دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، ص 316، مرجع سبق ذكره، بتصرف.

[4]- المرجع السابق: ص 18.

[5]- اليعقوبي: البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، دط، دت، ص 11.

[6]- المرجع نفسه: ص15.

[7]- الخطيب البغدادي: تاريخ مدينة السلام، تح: بشار عواد معروف، مج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1422هـ- 2001م، ص 364.

[8]- المرجع نفسه: ص 369.

ومن هنا نجد الباحثين قد اختلفوا في أصول كلمة بغداد التاريخية، وقد ورد هذا الاختلاف في كتب هؤلاء الباحثين والمؤرخين بمختلف آرائهم ونظرياتهم التي اعتمدوها في نصوصهم التاريخية التي أشارت إلى ذلك.

وقد طرأ على اسم بغداد تطور مستمر خلال المراحل التاريخية المختلفة، فطرأ عليه التغيير في المفهوم والدلالة بتعدد آراء وأقوال المؤرخين والباحثين، وسنشير إلى أهم الأسماء التي وقعت على بغداد وما تحمله من مفاهيم لغوية وسياسية في مراحلها التاريخية، مع أهم الأسماء التي أطلقت عليها في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور.

وقد ذكر "الجواليقي" بغذاد، بغذاذ، مغداد، مغداذ، بغدين، مغدان، بغذام، مغدام، بهداد... إذ يرجع هذا الاختلاف في أسماء بغداد إلى سببين الأول هو نطق الدال بالفارسية الحديثة والفهلوية القديمة والسبب الثاني وقع في الإبدال مثلا نجد الدال أُبدلت نونا، كما حدث في بغدين وبغدان وكذلك إبدال الباء ميما كما حدث في مغدام وبغدام، فنجد في العصر الذي بدأ المسلمون ينطقونها ذالا وجدوا إحراجا في نطقها ذالا خوفا من أن يكون ذلك شركا، وذلك حسب اعتقادهم أنَّ (بغ) اسم صنم، وداذ تعني بالفارسية أعطى فتكون بذلك ما أعطاه الصنم، فنجد الفصحاء منهم اختاروا بغداد بدالين حتى يتجنبوا نطقه بالمعنى الذي يقصد بالفارسية أعطى الصنم[1].

وقد ورد أنْ سُئِلَ "الأصمعي" ذات مرة "كيف يقال: بغداد، بغداذ، أو بغدان أو بغدين؟ فقال: قل مدينة السلام وأبغضه إلى بغداذ بالذال المنطوقة"[2]، فمن هنا يتضح لنا أنَّ الأصمعي كَرِهَ هذه الأسماء لأنها بالفارسية تعني تعني عطية الغنم.

كما ذكر "البكري" أنَّ معنى بغداد "باغ بالفارسية هو: البستان الكثير الشجر، و داذ: معطى، فمعناه، معطى البساتين"[3].

[1]- الجواليقي: المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تح: ف. عبد الرحيم، دار القلم، بيروت، ط1، 1410هـ- 1990م، ص 197، 198، بتصرف.

[2]- البكري الأندلسي: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تح: مصطفى السقا، ج1، عالم الكتب، بيروت، دط، 2009م، ص 262.

[3]- المرجع نفسه: ص 262.

وذكر أيضا "بغداد فيها أربع لغات: بغداد؛ بدالين مهملتين، وبغداذ معجمة الأخيرة؛ وبغدان بالنون؛ ومغدان بالميم بدلا من الباء، تذكر وتؤنث"[1].

كما ذكر "البغدادي" أنَّ علماء اللغة العربية "أنَّ بغداد في جميع اللغات تُذكر وتُؤنث فيقال هذه بغدان وهذا بغدان"[2].

"وأنشد يعقوب بن سُكيت اسم بغداد بصيغة بغدان في مطلع القصيدة: [الطويل]

لعَمْرك لولا هاشم ما تَغَبَّرت ببغدان في بوغائه القَدَمـــــــــان

كما أنشد أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي على نفس الصيغة يقول: [الطويل]

يا ليلة خَرَسَ الدَّجاج طويلةً ببَغْدانَ ما كادت عن الصُّبح تَنْجَلِي"[3]

وكان الفقهاء في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور يكرهون اسم بغداد لأنهم كانوا يفسرون اسم بغداد بمعنى "أعطاني الصنم" فرفض الخليفة أبي جعفر المنصور إطلاق اسم بغداد على مدينته، فسمَّاها مدينة السلام وارجع هذا الاسم إلى وادي السلام الموجود "بدجلة"وقد قيل أنَّ أصل اسم بغداد للأعاجم، ويختلف العرب في لفظه، فنجد بعض الأعاجم يزعمون أنَّ تفسيره بالعربية "بستان رجل"، فاستبعدوا تسميتها ببغداد، وكانت قديما دجلة تسمى قصر السلام، ومن العرب من يقول: بغدان بالباء والنون، والبعض يقول بغداد بالباء والدالين، وهاتين اللفظتين هما أشهر ما يتداولها العرب، وهي الشائعة فيما بينهم.[4]

في حين نجد "البغدادي" ذكر أيضا "لا يقال بغداذ بالذال، فإنَّ بغ شيطان، وداذ عطيته،وإنما شرك، ولكن بغداد وبغدان كما تقول العرب"[5].

[1]-البكري الأندلسي: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ج1، ص 261، مرجع سبق ذكره.

[2]- الخطيب البغدادي: تاريخ مدينة السلام، مج1، ص 368، مرجع سبق ذكره

[3]- المرجع نفسه: ص 367.

[4]- المرجع نفسه: ص 364، بتصرف.

[5]- المرجع نفسه: ص 356.

كما أشار "ياقوت الحموي" إلى معنى اسم بغداد قائلا: "إنَّ بغداد اسم فارسي معرب عن "باغ دَاذوَيه"، لأن بعض رقعة مدينة المنصور كان بَاغًا لرجل من الفرس اسمه داذويه، وبعضها أثر لمدينة دارسة كان بعض ملوك الفرس اختطّها فاعتل فقالوا: هلدوه وروز أي خلُّوها بسلام، فحكي ذلك للمنصور فقال سميتها مدينة السلام"[1].

وذكر كذلك أنَّ اسم بغداد مشتق من اسم ملك الصين مستدلا على ذلك في قوله: "إنَّ بغداد كانت قبل سوقا يقصدها تجار أهل الصين بتجاراتهم فيربحون الربح الواسع، وكان اسم ملك الصين "بغ" فكانوا إذا انصرفوا إلى بلادهم قالوا: بغ داد أي إنَّ هذا الربح الذي ربحناه من عطية الملك"[2].

ولما استأنف الخليفة أبي جعفر المنصور "في بناء مدينته بغداد جعلها المدورة"[3] نسبة إلى شكلها الدائري وهندستها الفريدة، إذ ذكر أنَّه لم يعرف من مدينة بنيت مدورة غيرها.

وقد أشار "أبو الفدا" إلى اسم آخر لبغداد يقول "سميت الزوراء لأنه "أي الخليفة أبو جعفر المنصور" جعل أبواب المدينة الداخلية مزورة عن الأبواب الخارجية"[4]،ولم يحدد سبب واضح لاختيار هذا الاسم كما أطلق على بغداد اسم آخر "هو المنصورة نسبة إلى الخليفة المنصور"[5].

وفي الأخير تؤكد لنا آراء المؤرخين والباحثين ومختلف نصوصهم التاريخية مدى أصالة وعراقة مدينة بغداد، وخير ما دلّ على هذه هي التغيرات المختلفة التي طرأت على اسم بغداد منذ عصور قديمة جدّا التي تعود إلى ما قبل الميلاد.

3- الأصول التاريخية لمدينة بغداد

بغداد هي عاصمة الخلافة العباسية، دارٌ للسلام والإسلام، هي بنت التاريخ، ورمز للصمود والشموخ، يسير معنا تاريخها العريق منذ مئات السنين على معالمها الحزينة، اكتست بغداد كلَّ خيوط الجاذبية على أطرافها، التي جعلتها محط الأنظارِ والأطماعِ، فكانت اتجاها اكتظ بالغُزاة واللصوص و الأيادي الخارجية التي عبثت بحضارتها المرموقة عبر السنين، وكانت بغداد وجهة للعلماء والموسيقيين و الأخيار الذين تسلّقوا مدائنها الخالدة

[1]- ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج1، دار صادر، بيروت، 1397هـ- 1977م، ص 456.

[2]- المرجع نفسه: ص456، 457.

[3]- مصطفى عباس الموسوي: العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، دار الرشيد للنشر، العراق، دط، 1982م، ص 136.

[4]- أبو الفدا: تقويم البلدان، تح: رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس، 1840م، ص 146.

[5]- مصطفى جواد وأحمد سوسة: دليل خارطة بغداد، ص 46، مرجع سبق ذكره.

للآن وارتموا في أحضانها، فبغدادُ ولدت من رحم الحضارات التي تعاقبت عليها الأزمان،فأصبحت بذلك معلمًا تاريخيًا إسلاميًا وحضاريًا فريدًا، تميزت بهندستها المحكمة، حيث جهز الخليفة أبي جعفر المنصور كل ما يلزم لبناء مدينة بغداد من بنائين ومواد البناء وصنّاعين ومختصين بالهندسة، حتى أتم البناء وأصبحت من أعظم المدن جمالا و حُسنًا، فكل ما جمعناه من مادّة تاريخية عن بغداد ما هو إلاّ جزء يسير من تاريخها الذي لن نستطيع أن نستوعبه كله فيما نذكره بعد عن قدم هذه المدينة التاريخية، التي ارتبطت بعصور قديمة خلت، وإسهامات الأيادي الجبارة في مرحلة بنائها، معتمدين في ذلك على أدلة وتوضيحات كثيرة .

أظهرت التنقيبات الأثرية أنَّ بغداد كانت موطنا بشريا يرجع لآلاف السنين الممتدة إلى العصور الأشوري قبل أن تصبح عاصمة للخلافة العباسية وهذا ما أثبتته الكتب التاريخية التي اعتمدت على الآثار التي اكتشفت في بغداد حديثًا "إنّ هذه المدينة من المدن الكلدانية القديمة العهد و كانت عامرة قبل الميلاد بنحو ألفي سنة"[1].

استولى الآشوريون على مدينة بغداد وأخذوها من الكلدان عدَّة مرّات أثناء الحروب التي قامت بينهم قديما وبين البابليين، فاحتلها الملك الآشوري آنذاك، وقد ذكر ذلك في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وأثناء تتبعنا للتطور التاريخي لمدينة بغداد والبحث في الجذور الأولى لهذه المدينة التي تنتمي للعصور القديمة جدّا وقبل إعادة بناء الخليفة المنصور لهذه المدينة التي أقامها على أنقاض بغداد القديمة، نجد الباحثون أكّدوا على وجود أثر عمارة في هذه المدينة في عهد الدولة البابلية الثانية، فقد اكتشفوا جدران قصر على الضفة الغربية من دجلة في نفس مدينة بغداد الحالية، كما عثروا على آثار كتابة على هذه الجدران في بغداد مكتوب عليها اسم ملك بابل والغزوات التي خاضها بالكتابة المسمارية، كما نجد حتى بعد ما ملك الساسانيون العراق سنة 226 بعد الميلاد، واتخذوها متنزها لهم، وهذا راجع إلى حسن موقعها الاستراتيجي وطبيعتها النقية، وبعد الفتح الإسلامي الذي اجتاح العراق بقيادة خالد بن الوليد، إضافة إلى أنَّه كان هنالك سوق يُعرف بسوق بغداد، الذي كان قبلة الناس والتجار من سائر البلاد.[2]

كما ذكر أنَّه تم العثور على موضع بغداد يرجع إلى فترة قديمة جدّا "كانت تقام فيه أسواق موسمية يجتمع فيها التجار، وقد وجدت هنالك نقوش آشورية تفيد بذلك"[3].

[1]- علي ظريف الأعظمي: مختصر تاريخ بغداد القديم والحديث، مطبعة الفرات، بغداد، 1344 هـ_1926م، ص 03.

[2]- المرجع نفسه: ص 03، 04، بتصرف.

[3]- أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية، بيروت، دط، دت، ص 55.

وكانت بغداد من أهم مراكز الحضارة، كما أنَّها من أهم المراكز التجارية التي ساهمت في ازدهار الثقافات وتنوعها، فبغداد ورثت الحضارات السابقة مثل بابل والسُلوقِية والمدائن، وقد تعدّى ذلك إلى استخدام ما تبقى من أنقاض مدينة المدائن لإعادة بنائها في مدينة بغداد الحديثة، وكان يعقد في بغداد سوقا كل شهر أو كل سنة يأتيه التجار من الصين وبلاد الفرس، في حين أثبتت عمليات البحث الحديثة على وجود مدينة قديمة في موضع بغداد، وهذا ما عثر عليه مكتشف الآثار الانجليزي السيرهنري رولنسون سنة 1848م، فوجد آثار مكتوبة على أحجار مدينة بغداد تظهر اسم "نبوخذ نصر الثاني" (604 ق.م- 561 ق.م)، كما يوجد ما يدل على قيام مدينة اسمها بالكتابة المسمارية "يغدودو" أو "يكدودو" إلاّ أنَّ هذه المدينة لم تحض بشأن في تلك العصور القديمة[1].

كما ذكرت الروايات التاريخية التي دونها "الفردوسي" في الشاهنامة في أخبار العهد الساساني منها أنَّ الملك "بهرام جور" (بهرام الخامس) (420-438م) توجه إلى بغداد بعد انصرافه من الصيد فبقي هناك مدة أسبوعين للراحة والاستجمام، وأنَّ أحد قادة الملك "هرمز الرابع" (574-591م) أعلن التمرد والعصيان في آذربايجان على الملك الذي كان يقيم في طيسفون أي "المدائن" فبعث مع تجار بغداد نقود نُقش عليها اسمُ كسرى "إبرويز" ابن الملك هرمز لنشرها بين سكان بغداد وطيسفون، وكان ذلك تمهيدا لحصول خلاف بين الملك وابنه.[2]

إنَّ الآثار التاريخية التي تم العثور عليها ترجع إلى عهود قديمة تؤكد لنا على عراقة وأصالة هذه المدينة التاريخية التي تعود لمئات السنين التي رسمت معالم التاريخ عبر مرِّ العصور بأبهى الحلل وعبق أصالتها.

4- سبب اختيار موقع مدينة بغداد

بعد الدراسة السابقة التي قمنا بها حول تقسيمات الدولة العباسية إلى عصور، ذكرنا أنَّ العصر العباسي الأول كان يطغو عليه العنصر الفارسي، بحيث احتل تقاليده ونظمه الإدارية وحياته الاجتماعية، لهذا أطلق عليه المؤرخون بالعصر الفارسي، الذين أرجعوا ذلك إلى غلبة نفوذه وسيطرته في كل مجالات الحياة العباسية، لهذا كان من البديهي أن تكون العاصمة التي اختارها العباسيون تتميز بطابعها الفارسي، والسير نفس اتجاه الفرس، فانتهت العواصم الإسلامية القديمة ولم تعد مناسبة وملائمة لهذا الجو الجديد الذي ظهر في تلك الفترة، فمدينة دمشق لم تعد صالحة للإكمال فيها إلى جانب الفرس وذلك لأنها كانت عاصمة الأمويين، وتميزت بكونها بيئة عربية خالصة، خالية من الأعاجم في حين نجد العباسيين اعتمدوا على الفرس في سلب الحكم من بني أمية وقيامهم

[1]- مصطفى عباس الموسوي: العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، ص132، 133، مرجع سبق ذكره، بتصرف.

[2]- مصطفى جواد وأحمد سوسة: دليل خارطة بغداد، ص 17، مرجع سبق ذكره، بتصرف.

بتأسيس دولة بني العباس، كما أنهم لم يقيموا عاصمتهم في نواحي مكة والمدينة وذلك راجع للطابع البدوي وأنَّ الإنسان دائما ما يميل إلى العيش في الحضر، أمّا الكوفة فكانت قائمة على المذهب الشيعي، والعباسيون كانوا رافضين لفكرة العيش في مكان لا يميلون فيه للمذهب السني، وهذا ما قام به أول الخلفاء العباسيين الذي رفض البقاء في الكوفة والانتقال إلى هاشمية الكوفة، ثم تحول منها إلى هاشمية الأنبار واستقر هنالك.[1]

اعتمد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور في اختياره للموضع المناسب على أهل العلم والمعرفة بعد أن أقام بالهاشمية "التي أسسها أخوه أبو العباس فعزم على تأسيس مدينة بغداد حاضرة بني العباس الكبرى ومظهر فخرهم ومدينتهم، وكان يريد أن يكون بعيدا عن الكوفة فخرج يرتاد مسكنا لنفسه وجنده ويُبتنى به مدينةً حتى صار إلى موضع بغداد"[2].

إذ لم تكن بغداد أول محطة للعباسيين يحطون فيها رحال حكمهم وأنظمتهم السياسية، فقد سبقتها الهاشمية قبل ذلك، وقد ذكرت الراوندية عن أبي جعفر المنصور صفو الأمن وكان لا يأمن أهلها على نفسه، فأشاح عنها يبحث عن موضع له ولجنده فسار الخليفة المنصور يبحث عن أكثر المواقع ملاءمة لأن تكون مدينته هي مركز وعاصمة للخلافة العباسية، وحتى يتمكن من إبعاد جنده بعدما أفسدوهم.[3]

بعد عزم الخليفة المنصور من الانتقال من الهاشمية، وبحثه عن مكان آمن بعيدا عن خطر الراوندية إلاّ أنَّه لم يكتفي بالجانب السياسي فقط، فكان ذا نظر ثاقب، واهتمامه بالجانب الاقتصادي كان همّا يرافقه، فسعى إلى البحث عن موضع يمتاز بخصائص اقتصادية تضمن للناس العيش الرغيد في كنف حكمه، فقال: "إنما أريد موضعا يرتفق الناس به ويوافقهم مع موافقته لي، لا تغلو عليهم فيه الأسعار، ولا تشتد فيه المؤونة، فأني إن أقمت فيه موضع، لا يجلب إليه من البر والبحر شيء غلت الأسعار، وقلّت المادة، واشتدّت المؤونة، وشق ذلك على الناس"[4].

فالخليفة أبي جعفر المنصور يرغب في بناء موضع جاذب اقتصادي يمكّنه من تأمين الحياة الكريمة للناس، استفسر عن الموضع بعد أن بات فيه ليلة فكان "أطيب مبيت في الأرض وأرفقه، وأقام يومه فلم ير إلاّ ما يحبّ،

[1]- أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص 54، مرجع سبق ذكره، بتصرف.

[2]- محمد الخضري بك: الدولة العباسية، ص 77، مرجع سبق ذكره.

[3]- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص 166 ، بتصرف.

[4]- الطبري: تاريخ الطبري- تاريخ الرسل والملوك -، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج7، دار المعارف، مصر، دط، دت، ص 616.

فقال: هذا موضع أبني فيه؛ فإنَّه تأتيه المادّة من الفرات ودجلة وجماعة من الأنهار، (...) فخطّها وقدّر بناءها، ووضع أوّل لبنة بيده"[1].

ولما أمضى الخليفة المنصور في بغداد وعثوره على موضع صالح وهذا ما ذكر لنا ابن الأثير في كتابه الكامل سبب اختيار الخليفة للمكان وأنّه اخذ بنصيحة صاحب بغداد عندما امتثل أمامه بعدما تشاور معه فقال: يا أمير المؤمنين سألتني عن هذه الأمكنة وما تختار منها فصاحب بغداد يرى أن ينزل الخليفة أربعة طساسيج في الجانب الغربي طسوجين وهما بقطربل وبادوريا، وفي الجانب الشرقي طسوجين وهما نهر بوق، وكلواذي فيكون بهذا بين نخل وقرب الماء، وقال أيضا: وإنَّ أجدب طسوج وتأخرت عمارته كانت في الطسوج الآخر العمارات، تجيئك الميرة في السفن من الشام والرقة، وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك، فهذا يجعل موقع بغداد الذي اختاره الخليفة بين أنهار كثيرة وأراضي خصبة.[2]

كما اهتم الخليفة المنصور بالجانب المناخي للمنطقة فذكر ذلك يقول: "كيف هي في الحر، والبرد، والأمطار، والوحول، والبق، والهوام"[3].

لقد كشفت لنا أقوال المنصور أنّه اختار بغداد لوجود صفات أهّلتها دون غيرها من المواقع ليكون صالحا لإقامة عاصمة للدولة الإسلامية، وأنّه اختار بغداد، لما تمتلكه من موقع استراتيجي هام يعود بالنفع الاقتصادي والزراعي على الدولة العباسية وغيرها من باقي الجوانب الأخرى السياسية والعسكرية.

كما أورد الحموي في "معجم البلدان" عن أهمية الحياة الاقتصادية في بغداد متجذرة منذ القديم يقول: "إنَّ بغداد كانت قبل سوقا يقصدها تجار أهل الصين بتجاراتهم فيربحون الربح الواسع"[4].

[1]- جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن ثغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج1، دار الكتب، مصر، دط، 1383هـ- 1963م، ص 340.

[2]- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص 166، مرجع سبق ذكره، بتصرف.

[3]- المرجع نفسه: ص 166.

[4]- ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج1، ص 456، مرجع سبق ذكره.

في حين نجد "ابن الجوزي" يصفها وصفا مغايرا ل"ياقوت الحموي "ويوضح لنا أنّها اكتست في القديم بطابع زراعي بعيد عن الطابع التجاري إذ يقول: "كانت مدينة أبي جعفر قبل بنائها مزرعة للبغداديين يقال لها المباركة، وكانت لستين نفسا من البغداديين فعوضهم عنها عوضاً أرضاهم"[1].

إنَّ مدينة بغداد التاريخية هي مهد للحضارات القديمة، فقد وُفِّقَ الخليفة أبو جعفر المنصور في حسن اختيارها عاصمة للعباسيين والمسلمين، وذلك لما تحوزه من مكانة مهمة في التاريخ العربي الحضاري، فهي تعدُّ نموذجا راقيا للهندسة والتخطيطِ العمراني الفرِيد ذي الطابع الإسلامي، فهي تستحق أن تكون مقرًا ومركزًا للخلافة الإسلامية والحضارة العربية التي توهجت في زمن الخليفة أبي جعفر المنصور.

5- بناء بغداد

بعد أن أنهى الخليفة أبا جعفر المنصور اختيار موقع المدينة، شرع في التخطيط لبنائها وتحديد الشكل الجديد الذي ستأخذه، فقد كان هذا الحدث من الإنجازات التي قام بها الخليفة المنصور فقد تركت أثرا في مستقبل الخلافة العباسية، إلى جانب هذا أصبحت مدينة بغداد من أعظم المدن الإسلامية في التاريخ العربي من خلال عمارتها وحضارتها وثقافتها وغيرها من باقي الأمور التي أهلتها لأن تكون عاصمة للدولة العباسية، فلا توجد عاصمة وصلت لهذا الرقي بقدر ما وصلت إليه بغداد آنذاك.

بعدما أدرك الخليفة حجم المخاطر التي تتربص به وبالخلافة التي تهدف إلى سلب الحكم من البيت العباسي، أخد بالبحث عن مكان يليق بأن يكون عاصمة للدولة العباسية يعبر عن سيادتهم في الحكم.

وقد ذكر البغدادي أنَّ أبا جعفر المنصور "ابتدأ أساس المدينة سنة خمس وأربعين ومئة، واستتمَّ البناء سنة ست وأربعين ومئة"[2].

ففي هذه الفترة شهدت بغداد حدثا مهما، وهو شروع الخليفة المنصور في تخطيط المدينة، فأراد الخليفة أن تتضح له معالم المدينة قبل البناء، فأحبَّ أن تُرسم المدينة على مخطط ليتمكن من النظر إليها "فأمر أن تُخط

[1]- ابن الجوزي: مناقب بغداد، تح: محمد بهجة الأثري البغدادي، مطبعة دار السلام، بغداد، دط، 1347هـ، ص 07.

[2]- الخطيب البغدادي: تاريخ مدينة السلام، مج1، ص 375، مرجع سبق ذكره.

بالرماد، وأقبل يدخل من كل باب، ويَمُرّ في فُصلانها وطاقاتها ورحابها وهي مخطوطة بالرماد، وأمر أن يُحفر الأساس على ذلك الرسم"[1].

جهز الخليفة أبا جعفر المنصور كافة الخبرات الموجودة في دولته وذلك لبدأ إنجاز مشروع بناء بغداد الكبير، فجلب من كل مكان مهندسين وأهل العلم والمعرفة بالبناء والمساحة وقسمة الأرض والبنائين والصناع وغيرهم من أناس كان لهم الفضل في إتمام بناء المدينة، وقد أعطى الخليفة ثقته في عملية الإشراف على المشروع لرجالٍ من ذوي العدالة والفقه والأمانة والمعرفة بالهندسة، وكان من تكفل بهذا الأمر هو الحجاج بن أرطأة وأبو حنيفة النعمان بن ثابت، فذهبوا وبحثوا عن عمال مناسبين وأحضروهم، وبهذا قام الخليفة بافتتاح مشروعه في يوم تاريخي مشهود من عام 145هـ، واحتفل معه رجال الدولة[2].

نجد الخليفة المنصور جعل "بغداد مدورة لئلاَّ يكون بعض الناس أقرب إلى السلطان من بعض وبنى قصره في وسطها والجامع في جانب القصر"[3].

لا يُعرف مدينة مدورة سواها تفنن المنصور في منحها هذا الطابع المعماري الفريد فيُقَالُ: "بنيت بغداد على شكل دائري وهو اتجاه جديد في فن بناء المدن الإسلامية، لأن معظم المدن الإسلامية كانت إمَّا مستطيلة كالفسطاط أو مربعة كالقاهرة أو بيضاوية كصنعاء"[4].

كان المشرفون على بناء مدينة بغداد من العرب المسلمين الذين عاشوا في المدن الإسلامية كالكوفة وغيرها، وقد أتقن هؤلاء التخطيط والعمارة بعد أن نضجت ملكاتهم الفنية والهندسية في فن العمارة، فقاموا بتنفيذ هذه الملكات في بناء مدينة بغداد، التي اعتبر تخطيطها بناءا فريدا ونموذجا رائعا في تخطيط المدن الذي ابتكره الخليفة المنصور، هذا ما سهّل الطريق أمام الخليفة المنصور لبداية أول مراحل الإنجاز فيقول: "بسم الله والحمد لله والأرض لله، يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، ثم قال: أبنوا على بركة الله"[5]، وبهذا أبدع القائمون على البناء في نحت مدينة تاريخية في غاية الدقة والتناسق التام.

[1]- ابن الجوزي: مناقب بغداد، ص 08، مرجع سبق ذكره.

[2]- عباس الموسوي: العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية، ص 135، 136، مرجع سبق ذكره، بتصرف.

[3]- أبي الفدا: المختصر في أخبار البشر، ص 05، مرجع سبق ذكره.

[4]- أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص56، مرجع سبق ذكره.

[5]- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص 167، مرجع سبق ذكره.

– المساحة والبناء:

أشار الخطيب البغدادي أنَّ المشرف على مشروع بناء مدينة بغداد أنَّه "كان بين كل باب من أبواب المدينة إلى الباب الآخر ميل، في كل ساف من أسواف البناء مئة ألف لبنة واثنتان وستون ألف لبنة من اللبن الجعفري"[1]، كما أشار إلى مساحة المدينة المدورة يقول: "عليها سُور مدوَّر، قُطرها من باب خُراسان إلى باب الكوفة ألفا ذراع ومئتا ذراع، ومن باب البَصرة إلى باب الشَّام ألفا ذراع ومئتا ذراع، وسُمك ارتفاع هذا السُّور الدَّاخل وهو سُور المدينة في السماء خمسة وثلاثون ذراعًا؛ وعليه أبرجة سُمك كل بُرجٍ منها فوق السُّور خمسة أذرع، وعلى السّور شُرَفٌ، وعَرْض السُّور من أسفله نحو عشرين ذراعًا"[2].

كما ذكر ابن الجوزي في كتابه "مناقب بغداد" مساحة المدينة المدورة فقال: "إنَّ مساحتها مائة جريب وثلاثون جريبًا، وانفق عليها ثمانية عشر ألف ألف"[3].

تبقى هناك اختلافات في مساحة مدينة بغداد، لهذا كان من الصعب معرفة مساحتها الدقيقة؛ ذلك لأن الباحثين والمؤرخين المسلمين لم يقفوا على مقاس معين للمدينة المدورة، فقد ذكر اليعقوبي في كتابه "البلدان" والخطيب البغدادي في كتابه "تاريخ مدينة السلام"، وابن الجوزي أنَّ كل واحد منهم أعطى قياسات مغايرة عن البقية، فالمساحة حسب رواية اليعقوبي قد قدَّرها بـ 7,945,457 مترا مربعا، أي حوالي ثمانية كيلو مترات مربعة على أساس أنَّ المسافة بين باب وآخر هي خمسة آلاف ذراع، أما بالنسبة للخطيب البغدادي، فقد ذكر عدَّة روايات مختلفة لمساحة بغداد، فالرواية الأولى جاءت بأنَّ مساحتها تقدر بـ 3,142,857 مترا مربعا، أي أكثر من ثلاث كيلو مترات مربعة، أمَّا الرواية الثانية فقال بأنها تقدر بـ 5,084.349 مترا مربعا، بمعنى أكثر من خمسة كيلو مترات مربعة، كذلك في الرواية الثالثة، قال بأن مساحة بغداد أعطى فيها قطران مختلف الطولين، والاختلاف الرابع، قال بأن مساحتها تقدر بـ 950,714 مترا مربعا، أي أقل من الكيلو متر المربع الواحد، والرواية الخامسة ذكر فيها أنَّ مساحتها هي 234000 مترا مربعا، وفي الأخير جاءت الرواية السادسة يقول فيها أنَّ مساحة المدينة المدورة هي 12,571,428 مترا مربعا، أي أكثر من اثني عشر كيلو مترا مربعا.[4]

[1]– الخطيب البغدادي: تاريخ مدينة السلام، مج1، ص 381، مرجع سبق ذكره.

[2]– المرجع نفسه: ص 383.

[3]– ابن الجوزي: مناقب بغداد، ص 09، مرجع سبق ذكره.

[4]– طاهر مظفر العميد: بغداد مدينة المنصور المدورة، ص 14، 15، مرجع سبق ذكره، بتصرف.

هذا يجعلنا لا نستطيع أن نصل إلى المساحة الحقيقية لمدينة بغداد وخاصة بعد زوال معالم هذه المدينة التاريخية وزوال معالم أسوارها وأبوابها.

شرع الخليفة المنصور في التهيئة لعملية البناء والعمل على إنجاز مدينة بغداد، فمن الاستعدادات التي أمر بها الخليفة المنصور قبل وضع الأساس "ضرب اللبن العظام، وكان في اللبنة التامة المربعة ذراع في ذراع، وزنها مائتا رطل، واللبنة المنصفة طولها ذراع، وعرضها نصف ذراع، ووزنها مائة رطل، وحُفرت الآبار للماء وعُملت القناة التي تأخذ من نهر كرخايا وهو النهر الآخذ من الفرات فأتْقنت القناة وأجريت إلى داخل المدينة للشرب، ولضرب اللبن، وبَلّ الطين"[1].

فقد جمع الخليفة أبو جعفر المنصور كل المواد التي يحتاجها في عملية البناء، فقد "هيّأ لبناء مدينة بغداد ما يحتاج إليه من خشب وساج وغير ذلك"[2].

تعددت المواد المستعملة في بناء بغداد فإلى جانب استعمالهم للخشب والساج، فإنَّهم استعملوا أيضا الآجر والجص في بناء عقود الدهاليز الموجودة عند أبواب المدينة المدورة، كما أنَّهم استخدموا في بناء الأعمدة التي وُضعت عليها السقيفة، وكانوا قد استعملوا الآجر والصاروج للقنوات، إلى جانب هذا فقد استخدموا في بناء مسجد مدينة المنصور اللبن والطين، ومن المصادر القديمة نلاحظ أنهم قد قللوا استعمال الحجارة في مشروع البناء للمدينة، في مقابل ذلك نجد أنَّه قد كَثُرَ استخدام الطين للمدينة، ثم الجص والآجر، وأنَّ الجص كان في ذلك الوقت يستوردونه من المناطق المجاورة لأن بغداد كانت منطقة خالية من الكلس الذي يصنع منها الجص، لهذا فقد كانت المواد المستعملة في عملية البناء أغلبها مواد متوفرة محليا.

كما أشار الطبري سابقا أنَّ قصر الذهب قد بُني بالجص والآجر، ومن أهم ما تمَّ انجازه هو قصر الخلافة في وسط المدينة والمسجد الجامع، كما تمَّ بناء بيوت الخاصة والعامة، وأبنية الدولة والشوارع والأسواق والطاقات والخنادق، ورغم هذه المواد البسيطة في عملية البناء إلاَّ أنَّ البناء كان قويا، فلم يحدث انهيار داخل المدينة،ولم يُزرع فيها حدائق وبساتين، فكل هذه النقائص قد لفتت بطريق الروم الذي زار بغداد بِعِيدِ بنائها، فنبه الخليفة المنصور عليها، فقام الخليفة المنصور بجر القنوات إليها لتزويدها بالماء، ووظف في كل هذه الأعمال الخاصة بالبناء عمال وصناع جاؤوا من مختلف الأماكن والبلدان، حيث كانوا يأخذون أجرتهم كل يوم، إلاَّ أنه قد حدث اختلاف في

[1]- اليعقوبي: البلدان، ص 25، مرجع سبق ذكره.

[2]- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج7، ص 650، مرجع سبق ذكره.

سعر رواتبهم اليومي، فقد جاء عند الطبري أنَّ الأستاذ من البنائين كان يعمل يومه بقيراط فضة، والروزجاري بحبتين إلى ثلاث حبات، أمَّا في كتاب بغداد مدينة السلام للخطيب البغدادي قال بأنَّ الأستاذ هو من الصناع، فكان يأخذ يوميته قيراط إلى خمسة حبات والروزجاري بحبتين إلى ثلاث حبات، كما أنَّ الرجل يعمل بالروزجار في السور كل يوم بخمس حبات، في حين يعود الطبري ويقول بأنَّ في مكان آخر أجرة الأستاذ البنَّاء هي خمسة دراهم، وفي الأخير نرى بأن هناك اختلاف حول حقيقة أجور العمال المشاركين في بناء مدينة السلام.[1]

ولما أكمل الخليفة أواخر عملية البناء فنجد بأنَّ "الزمن الذي يستغرقه البناء فقد ذكرت المصادر أنَّ مدينة المنصور المدورة بُدِيء بخطها في سنة 145، وانتقل إليها سنة 146، غير أنَّ الأسوار لم تكتمل حتى سنة 149، ومن الطبيعي أنَّ هذا يشمل كافة أبنية المدينة بما في ذلك القصر والجامع"[2].

وقد اكتملت مدينة بغداد بعد أن وضع الخليفة المنصور كل ما يلزم من مواد للبناء، والعمل في موقع المدينة إلى أن انتهوا من البناء، ورؤوا ثمرة تعبهم وبروز معالم هندستهم على أرض الواقع.

6- معالم مدينة بغداد

مثلت مدينة بغداد بنية حضارية لا مثيل لها عبر السنين، خلقت من خلالها موقعا مركزيا ظهر في كيانها الحضري والعمراني، فتشكلت لنا أهم عمائر هذه المدينة الفنية من أنماط تخطيطية مختلفة، تمثلت في العمارة الإسلامية كالأسواق والمساجد والقباب، وطرق بنائها والاستخدامات الفنية الإسلامية في شكلها ولونها.

أ- قصر باب الذهب:

و ما يعرف أيضا بقصر المنصور، فقد انبهر "الجاحظ" بتصميم المدينة المدورة فيقول: "قد رأيت المدن العظام، المذكورة بالإتقان والإحكام، بالشَّامات وبلاد الرُّوم وفي غيرهما من البُلدان، لم أرَ مدينة قط أرفع سمكا، ولا أجود استدارة، ولا أنبل نبلا، ولا أوسع أبوابًا، ولا أجود فصِيلاً، من الزَّوراء، وهي مدينة أبي جعفر المنصور"[3]، وهذا ما يوضحه لنا الجاحظ في قوله أنَّ مدينة بغداد كانت في غاية الدقة والإتقان.

[1]- صالح أحمد العلي: معالم بغداد الإدارية والعمرانية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد- العراق، ط1، 1988م، ص 16- 19، بتصرف.
[2]- المرجع نفسه: ص 18.
[3]- الخطيب البغدادي: تاريخ مدينة السلام، مج1، ص 386، 387، مرجع سبق ذكره.

وقدرت مساحة القصر حسب ما رواه الخطيب البغدادي على هيئة مربعة "طول كل ضلع من أضلاعه أربعمائة ذراع، أي ما يعادل (500متر)، فتكون مساحته مقاربة لأربعين ألف متر مربع"[1]، وقد كان في قصر المنصور "إيوانٌ طوله ثلاثون ذراعًا، وعرضه عشرون ذراعا، وفي صدر الإيوان مجلسٌ عشرون ذراعا في عشرين ذراعا، وسمكه عشرون ذراعا؛ وسقفه قُبَّة وعليه مجلس مثله فوقه القبة الخضراء؛ وسمكُه إلى أول حَدِّ عَقْد القُبَّة عشرون ذراعًا؛ فصارَ من الأرض إلى رأس القُبَّة الخضراء ثمانين ذراعا، وعلى رأس القُبَّة تمثال فرس وعليه فارس، وكانت القُبَّة الخَضْراء تُرى من أطراف بغداد"[2].

وقد تدرجت بغداد في البناء والعمران داخل المدينة، فشيدت فيها المباني الفخمة، والقصور الشاهقة، فنجد قصر الذهب "يعتبر مركز الدائرة في المدينة الجديدة"[3].

ويشير اليعقوبي في وصفه لقصر الخليفة بقوله: "وعلى المصعد أبوابٌ تغلق،فإذا أخرج الخارج من الطاقات خرج إلى رحبة، ثم إلى دهليز عظيم أزج معقود بالآجر و الجص، عليها باباً حديد يخرج من الباب إلى الرحبة العظمى، وكذلك للطاقات الأربعة على مثال واحد"[4]، وقد كان قصر الخليفة هو محور المدينة المدورة ومركزها، وقد تميزت هذه المدينة بأنه "يقع في وسطها قصر الخليفة، ثم بني المسجد الجامع بجانبه"[5].

ويصف لنا ابن الجوزي قبة القصر بقوله: "هذه القبة تاج بغداد، وعلم البلد، ومأثرة من مآثر بني العباس"[6]، وقد كانت القبة الخضراء من أهم معالم القصر التي تزينت بالرسم الفارسي، فأشار المؤرخون بأنه "كان على رأس هذه القبة صنم على صورة فارس في يده رمح"[7]، كما أوردنا الخطيب البغدادي في ذكره لتاريخ سقوط القبة الخضراء "يوم الثلاثاء لسبع خَلَون من جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وثلاث مئة"[8].

وبعد تخطيط الخليفة المنصور لبناء المدينة في شكلها الدائري، قام بتخطيط قصر يتوسط هذه المدينة المستديرة، الذي تميز بتصميمه الإسلامي الفريد وزخارفه المتنوعة المعالم، ومساحته الواسعة، كما أنَّه تميز بقبته

[1]- طاهر مظفر العميد: بغداد مدينة المنصور المدورة، ص 263، مرجع سبق ذكره.
[2]- الخطيب البغدادي: تاريخ مدينة السلام، مج1، ص 382، مرجع سبق ذكره.
[3]- علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام، الجاهلية – الدولة العربية – الدولة العباسية، مكتبة النهضة المصرية، ط3، دت، ص 354.
[4]- اليعقوبي: البلدان، ص 27، مرجع سبق ذكره.
[5]- صالح أحمد العلي: معالم بغداد الإدارية والحضارية، ص 31، مرجع سبق ذكره.
[6]- ابن الجوزي: مناقب بغداد، ص 12، مرجع سبق ذكره.
[7]- طاهر مظفر العميد: بغداد مدينة المنصور المدورة، ص 264، مرجع سبق ذكره.
[8]- الخطيب البغدادي: تاريخ مدينة السلام، مج1، ص 383، مرجع سبق ذكره.

الخضراء التي زالت للأسف ولم تَدُم، كما أنَّه إضافة إلى هذا الجمال البديع في التخطيط، كان له الجمال في الموقع كذلك، حيث تمركز في وسط المدينة المدورة، وأصبح هو مركز وقلب المدينة.

ب- المسجد الجامع:

و ما يعرف عنه بمسجد المنصور، الذي شُيِّد على أرض بغداد، إذ تميز هذا المسجد بتخطيطه الإسلامي الفريد، فجاءت كل المساجد التي بعده مقاربة له في الشكل والتخطيط واستمدت هندسته من جامع المنصور، لقد كان من أكبر الجوامع التي بُنِيَت في ذلك الزمن، وجعل الخليفة المنصور المسجد ملاصقا لقصر الذهب الذي بناه باللبن والطين، وظل هذا المسجد شامخا في رحاب الخلفاء العباسيين الذين تَلُوا الخليفة في الحكم، وأضافوا عليه بعض التعديلات والإصلاحات، وشهد المسجد توسيعا في المساحة وزيادتها، إذ نجد الجامع يحتوي على المصلى وفيه المحراب، وخلفه المجنبتين والفناء، ويرجح أنه كان يحتوي على ميضأةٍ ومأدنةٍ[1].

ويذكر اليعقوبي أنَّه "إلى جانب القصر المسجد الجامع"[2] وكان المسجد الجامع أول مسجد بناه الخليفة المنصور في بغداد كان "ملاصق قصره المعروف بقصر الذهب، بناه باللبن ومساحته مائتا ذراع في مائتين"[3].

ويذكر الطبري أنَّ "قبلتها على غير صواب، وإنَّ المصلي فيه يحتاج أن ينحرف إلى باب البصرة قليلا، وإنَّ قبلة مسجد الرُّصافة أصوب من قبلة مسجد المدينة؛ لأنَّ مسجد المدينة بني على القصر، ومسجد الرُّصافة بني قبل القصر، وبني القصر عليه؛ فلذلك صار كذلك"[4]

أشار البغدادي إلى مساحة المسجد الجامع والتي قدَّرها بقوله "كانت مساحة قصر المنصور أربع مئة ذراع في أربع مئة ذراع، ومساحة المسجد الأول مئتين في مئتين، وأساطينُ الخَشَب في المسجد يعني كل أسطوانة قطعتين معقبتين بالعَقِب والغِرَاء وضبَّات الحديد، إلاَّ خمسًا أو ستًا عند المنارة"[5].

[1]- طاهر مظفر العميد: بغداد مدينة المنصور المدورة، ص 269- 275، مرجع سبق ذكره، بتصرف.

[2]- اليعقوبي: البلدان، ص 27، مرجع سبق ذكره.

[3]- ابن الجوزي: مناقب بغداد، ص 20، مرجع سبق ذكره.

[4]- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج7، ص 652، مرجع سبق ذكره.

[5]- الخطيب البغدادي: تاريخ مدينة السلام، مج1، ص 427، مرجع سبق ذكره.

بني المسجد الجامع باللبن والطين، وفي عهد الخليفة هارون الرشيد أمر "بنقضه وإعادة بنائه بلآجر والجص ففُعِلَ ذلك، وكُتِبَ عليه اسم الرشيد، وذِكْر أمرِه ببنائه، وتسميةُ البنَّاء والنَّجَّار وتاريخ ذلك"[1]

كما أمر المعتضد بالله في زيادة مساحته وتوسيعه، فيذكر البغدادي ذلك في قوله "ثم زاد المعتضد بالله الصحن الأول، وهو قصر المنصور، ووصله بالجامع، وفتح بين القصر والجامع العتيق في الجدار سبعة عشر طاقا؛ منها إلى الصحن ثلاثة عشر، وإلى الأروقة أربعة، وحَوَّلَ المنبر والمِحْرَاب والمقْصورة إلى المسجد الجديد"[2].

جـ- بناء الكرخ:

أصبحت بغداد مركزا اقتصاديا وتجاريا عظيما داخل محيط المدينة، حيث قصدها التجار من جميع المناطق ومختلف البلاد لممارسة تجارتهم، إلاَّ أنَّ الازدحام والضيق وما تنتجه الأسواق من اتساخ داخلها، وكذلك لسهولة تسلل الغرباء داخلها، أمر الخليفة المنصور أن يخرجوا الأسواق خارج أسوار المدينة لتجنب ما قد ينتج عن هذا الأمر.

بعد أن تمَّ الخليفةُ المنصور بناء بغداد، أمر أن تقام الأسواق في طاقات المدينة، حي يوضع لكل باب سوق، وظلَّ هذا التصميم الهندسي قائما إلى أن زار أحد بطارقة الروم رسولا من عند الملك، فطلب بإقامة جولة في المدينة ليتأمل هندستها الفريدة من أسوار وأبواب وغيرها من الأمور التي كانت موجودة داخل بغداد، وعندما انتهى من جولته هاته، قال له الخليفة: كيف رأيت مدينتي؟ فأجابه بأنَّها مدينة حصينة وبناؤها جيِّد ولكن أعداؤك في الداخل ومكانهم الأسواق، فالعدو إذا أراد الدخول سيستغل أمر التجارة ويدخل ويخرج من المدينة ولا تستطيع معرفته، ففكر الخليفة المنصور فيما قاله وأمر بإخراج الأسواق من المدينة.[3]

ويذكر البغدادي أنَّ بناء الكَرْخ جاء "سنة سبع وخمسين ومئة فيها نقل أبو جعفر الأسواق من المدينة ومدينة الشرقية إلى باب الكَرْخ وباب الشعير والمحَوَّل، وهي السوق التي تعرف بالكرخ، وأمر ببنائها من ماله على يدي الرَّبيع مولاه"[4].

[1]- المرجع السابق: ص427.

[2]- الخطيب البغدادي: تاريخ مدينة السلام، مج1، ص 428، مرجع سبق ذكره.

[3]- ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج4، ص 448، بتصرف.

[4]- المرجع السابق: ص 390، مرجع سبق ذكره.

وقد أخذت هذه المدينة معنى اسمها، حسبما أشار إليه "الحميري" في معجمه الجغرافي "الروض المعطار" قائلا: "وهو اسم نبطي، وهو مدينة صغيرة عامرة شرقي دجلة، وهي في الجانب الغربي من بغداد، ومعروف الكرخي الزائد من هذا الوضع قالوا: الكرخ هو السوق العظمى مادة من قصر وضاح إلى سوق الثلاثاء طولاً مقدار فرسخين، ومن قطيعة الربيع إلى دجلة عرضها مقدار فرسخين"[1].

عزم الخليفة المنصور على نقل السوق خارج المدينة فوقع اختياره على الكرخ ليكون بذلك المكان المناسب الذي نجده "يقع مابين الصراة ونهر عيسى، ثم أمر ببناء مسجد في السوق الجديد، ولما كثر الناس ضاقت عليهم هذه الأسواق، فبنوا أسواقا من أموالهم حتى اتسع الكرخ، ومع ذلك فقد أمر المنصور بأن يبقى في كل ربضٍ يقال واحد لبيع الأشياء اليومية التي لا غنى للناس عنها. وبمرور الزمن اتسعت بغداد حتى صار الكرخ في وسطها"[2].

كما أمر الخليفة أن يُبنى داخل الكرخ "لأهل الأسواق مسجد يجتمعون فيه يوم الجمعة لايدخلون المدينة، وقلَّد ذلك رجلا يقال له الوضاح فبنى القصر الذي يقال له قصر الوضاح والمسجد فيه، وسميت الشرقية لأنها شرقي الصُراة"[3].

وَفَّرَ الخليفة المنصور كل ما يلزم من مواد للبناء وبنائين للمساهمة في بناء هذه الأسواق في الكرخ، مما ساهم في ازدهار التجارة وتوسعها بشكل كبير، والقضاء على الإكتضاض والضغط داخل المدينة المدورة.

د- بناء الرُّصافة:

بعد انتهاء الخليفة المنصور من بناء مدينته بغداد، وتنظيم شؤونها، انتقل إليها هو وحاشيته، فما إن دخلت سنة 151هـ إلاَّ وازدحمت مدينة بغداد بالناس تهافتوا إليها من كل حدب وصوب؛ منهم العلماء والتجار والباعة وأرباب الصناع، فأصبحت ضيقة لا تتسع للكم الهائل من الناس، وصارت غير كافية لقاطنيها، فقرَّر المنصور إنشاء قصر له خارج بغداد ليتبعه الناس إلى هناك، فأنجز قصر "الخلد" على نهر دجلة وراء باب خراسان، وأخذ الناس يبنون بيوتهم بجانب القصر، فاشتهرت هذه المنطقة حتى أصبحت تعرف بحلة الخلد.[4]

[1]- الحميري محمد عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، دط، دت، ص 491.

[2]- سليمان الدخيل: الفوز بالمراد في تاريخ بغداد، تح: محمد زينهم محمد عزب، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 1423هـ- 2003م، ص 17.

[3]- ابن الجوزي: مناقب بغداد، ص 13، مرجع سبق ذكره.

[4]- علي ظريف الأعظمي: مختصر تاريخ بغداد القديم والحديث، ص 11، مرجع سبق ذكره، بتصرف.

لم يكتفِ الخليفة المنصور بما أنجزه فقط من توسيع على الضفة الغربية لدجلة، وتأسيس مدينة تعرف بالكرخ، بل حاول توسيع أراضيه أكثر "فلمَّا قدم المهدي من الري وفد إليه أهل من الكوفة وأهل من الشام وغيرهم من وجوه الناس، فهنؤوه بمقدمه، ولقوا المنصور فهنؤوه أيضا، فأمر المهدي لعامتهم بالجوائز والخلع والحملان"[1]، شعر المنصور بالضيق داخل مدينته وراح في سنة "إحدى وخمسين ومائة ابتدأ المنصور ببناء الرُّصافة بالجانب الشرقي لابنه المهدي"[2].

الخليفة المنصور لم يأمر ببناء الرصافة هكذا بدون أي أسباب، وإنَّما لوجود مشاكل داخل المدينة بينه وبين الجند، الذين شغبوا على الخليفة وحاربوه عند باب الذهب، وليتجنب الخليفة انتشار الفوضى داخل المدينة بسبب فتنة جنوده طلب في أمر شيخ يدعى قُثَم بن العباس بن عبيد الله بن العباس، فقال المنصور: كيف ترى تمرد الجند هذا؟ فإنّي أخاف أن تُجمع كلمتهم؟ فردَّ عليه الشيخ بأن تنقل ابنك المهدي إلى الجانب الشرقي ويأخذ معه العسكر، وتُقام له مدينةٌ، فيصبح بهذا تمركز العسكر خارج المدينة، ويصبح ابنه في مدينة والجند في الجانب الشرقي، والخليفة في مدينة، والعسكر في الجانب الغربي، وهكذا إن حدث شيء داخل المدينة وتمرد على الخليفة أحد الجانبين يقوم بالاستعانة بالجانب الآخر، هذا ما جعل الخليفة المنصور يوافق على بناء الرُّصافة.[3]

نجح الخليفة المنصور في إنهاء مشروع هذه المدينة "واستتم بناء الرُّصافة وجميع مافيها سنة تسع وخمسين ومئة"[4]، كما أنَّه يوجد في رواية أخرى ذكرها الخطيب البغدادي أنَّ المنصور "فرغ من بناء الرُّصافة سنة أربع وخمسين ومئة"[5].

حظيت الرُّصافة بطابع عمراني فريد وهندسة بديعة كما لو كانت هي العاصمة بغداد فقد "عَمِلَ لها دورا وخندقا ومسجدا وجامعا وقصرا، وأجرى لها الماء"[6]، وأخذ الناس يتهافتون نحو الرصافة وذلك لمحبتهم للمهدي، وتميزت الرُّصافة بأنها كانت أوسع الجانبين أرضا، وما لبثت أن عُمِّرَت بالأسواق ومنازل التجار الجند وغيرهم.

[1]- الهمذاني: البلدان، ص 289، مرجع سبق ذكره.

[2]- ابن الجوزي: مناقب بغداد، ص 12، مرجع سبق ذكره.

[3]- ابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، دط، دت، ص 173، 174.

[4]- الخطيب البغدادي: تاريخ مدينة السلام، مج1، ص 393، مرجع سبق ذكره.

[5]- المرجع نفسه: ص 393.

[6]- سليمان الدخيل: الفوز بالمراد في تاريخ بغداد، ص 17، مرجع سبق ذكره.

الفصل الثاني: حياة بغداد كما تجلت في شعر ابن الرومي.

1- التعريف بابن الرومي.

2- مظاهر الحياة السياسية.

3- مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية.

4- مظاهر الحياة الفكرية والأدبية.

1- التعريف بابن الرومي

ابن الرومي من الشعراء الصادقين في شعرهم، يُفْصِحُ عمّا يعيشه من يوميات حياته من خلال أشعاره، كان شعره مرآة عاكسة لواقع المجتمع العباسي بمختلف طبقاته، كما كان شعره ترجمة لنفسه في مختلف المجالات من الناحية السياسية والاجتماعية والفكرية.

أ- نسبه ونشأته وحياته:

ينتسب ابن الرومي إلى "أبي الحسن علي بن العباس بن جُرَيج، وقيل جورجيس، المعروف بابن الرومي، مولى عبيد الله بن عيسى بن جعفر بن منصور"[1] من أم فارسية تدعى "حَسَنَةُ بنت عبد الله السجزِيّ"[2]، ويذكر ابن الرومي نسبه من شعره فيقول: [المنسرح]

وكيف أغضي على الدَّنِيَّة والـــ فُرسُ خُؤولي والرومُ أعمامـــي[3]

ولد ابن الرومي بمدينة بغداد "يوم الأربعاء بعد طلوع الفجر بليلتين خَلَتا من رجب سنة إحدى وعشرين ومائتين ببغداد، في الموضع المعروف بالعقيقية ودرب الختلية في دار بإزاء قصر عيسى بن جعفر ابن المنصور"[4].

له أخ أكبر منه يدعى محمد المكنّى بأبي جعفر، الذي لم يكن له سواه بعد أهله، الذي كان يعمل في خدمة عبيد الله بن عبد الله بن طاهر لدى بيت طاهر المشهور في دولة بني عباس، إلى أن توفي وترك أخاه ابن الرومي في عمر الحادية والثلاثين، وقد حزن عليه حزنًا طويلا ورثاه في قصائده، ولم يبق له بعد موت أخيه إلاّ مواليه من الهاشميين العباسيين الذين عاش في كنفهم، يذكرونه حينا ويتناسونه حينا آخر، فقد مات أبوه وهو طفل صغير، وماتت أمه وهو كهل أو متكهل، وحزن عليها حزنا شديدا، كما كانت له أخت ماتت قبل أمه.[5]

فيذكر أمه من خلال شعره فيقول: [الطويل]

---

[1]- أحمد حسن بسج: ديوان ابن الرومي، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط3، 1423هـ- 2002م، ص 07.

[2]- المرزباني أبي عبيد الله محمد بن عمران بن موسى: معجم الشعراء، تح: فاروق السليم، دار صادر، بيروت، ط1، 2005م، ص 183.

[3]- ديوان ابن الرومي: ج3، ص 324.

[4]- أبي العباس شمس الدين أحمد المحمد بن أبي بكر بن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، مج3، دار صادر، بيروت، دت، ص 360، 361.

[5]- عباس محمود العقاد: ابن الرومي حياته من شعره، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، دط، 2012م، ص 68-72، بتصرف.

ألا من أراهُ صاحبًا غير خائنٍ ألا من أراه مُؤنسًا غيرَ مُحْتَشَمِ؟

ألاَ من تليني منه في كلّ حالةٍ أبرُّ يدٍ بَرَّتْ بذي شعثٍ يُلـمِ؟

ألاَ مَنْ إليه أشتكي ما ينُوبـُني فيُفْرِجُ عنّي كُلَّ غمٍّ وكُلَّ هــمِ؟[1]

ويذكر "العقاد" أنَّ ابن الرومي "رزق بثلاث أبناء؛ هم: هبة الله، ومحمد، وثالث لم يذكر اسمه في ديوانه، ماتوا جميعا في طفولتهم ورثاهم بأبلغ وأفجع ما رثى به والدٌ أبناءه، وقد سبق الموت إلى أوسطهم محمد فنظم في رثائه الدالية المشهورة يقول فيها:

تَوخَّى حمام الموت أوسط صبيتي فالله كيف أختار واسطة العقدِ؟"[2]

بعد هذه الفواجع المتتالية التي أفقدته عائلته، نال ابن الرومي حصته من الحزن والجزع والقهر، "وكان مفطورًا على غرور كبير يقترن بالخوف والجبن، وكان شديد التقلب ينقاد لنزوات طبيعته الجامحة، شديد التشاؤم والتطير لا يرى الأشياء والناس إلاّ بالنسبة إلى ذاته المريضة"[3]، فتشاؤم الشاعر ونظرته السوداوية لم تكن إلاَّ نتيجة لظلم جار عليه في زمنه، وحظًّا حاربه وصبَّ عليه بأعظم المصائب، فصار سريع الانفعال، وهذا يتضح من خلال شعره الذي يمدح اليوم ويهجو من مدحه غدا.

عاش ابن الرومي "معظم أيامه في بغداد عاصمة العلم والمجون واللهو جميعا، في ذلك العصر، يعيش فيها مغموما، ويلازمها ولا يرى لنفسه سبيلا إلى مغادرتها، لأنَّه لم يكن من ذوي الطموح والجرأة، ليرحل في طلب الرزق والعلى"[4]، لقد كان مضطرا للبقاء في بغداد وهذا يرجع إلى نفسيته المضطربة التي تمتزج بالخوف والتشاؤم والجبن.

وقضى ابن الرومي معظم حياته في التعبير عن أحاسيسه واضطراباته بالشعر الذي سخره في الإفصاح عمّا يروق له وما لا يروق، فقد "أكثر ابن الرومي من الوصف فكان في مدحه ورثائه وصافًا، وكان في غزله وهجائه وصّافًا، وكان في كل سانحة من سوانح المكان والزمان وصّافًا"[5]، وهذا لشدة انفعال ابن الرومي، وما كان شعره إلاّ

[1]- ديوان ابن الرومي: ج3، ص 295.

[2]- عباس محمود العقاد: ابن الرومي حياته من شعره، ص 72، مرجع سبق ذكره.

[3]- حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، ص 767، مرجع سبق ذكره.

[4]- إيليا سليم الحاوي: ابن الرومي فنّه ونفسيّته من خلال شعره، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1980م، ص 11.

[5]- المرجع السابق: ص 768.

إلاّ وسيلة لإظهار كل هذه التأثيرات المختلفة، وتوفي ابن الرومي "في الجانب الشرقي في مشارع سوق العَطَشِ، في جمادى الأولى، سنة ثلاث وثمانين ومائتين، ودُفِنَ في مقابر باب البستان، وكان ملازما للحَسنِ والقاسم ابنيّ عبيد الله بن سُليمانَ في وزارة أبيهما، فيقال: إنَّ ابن فِرَاسٍ الكاتبَ احتال عليه بشيء أطعمه إيّاه بأمر القاسم بن عبيد الله، وكان سبب موته لهجائه ابن فراسٍ"[1].

ب- تعليمه وثقافته وشاعريته:

لم نتمكن من العثور على أخبار تفيد أن ابن الرومي تلقى تعليما في صباه، إلاّ ما جاء في "كتاب الأغاني" في جزئه السادس أنَّ ابن الرومي كان يروي عن أبي العباس ثعلب، وعن حمّاد بن مبارك، وعن الحسين بن الضحّاك، ويروي في موضع آخر عن قتيبة، عن عمرو السكوتي بالكوفة، عن أبيه الحسين بن الضحّاك، وهنا يتضح أنَّه يمكن أن تكون هذه رواية التلميذ عن أستاذه وهم من علَّموه وأملوا عليه، وقد نهض ابن الرومي على علوم وافرة في عصره ساهمت في تكوينه الفكري والثقافي والمزج بين القديم والحديث، فتطرق في شعره إلى ذكر الفلاسفة والرياضيين والأساطير وذكر الكواكب والنجوم كما نقل من مختلف الثقافات الفارسية واليونانية وغيرها، كما أنَّه كان يقتني الكتب ويتوسع في المعارف ومختلف العلوم، فشواهد شعره خير دليل عن شغفه الدائم بالتحصيل العلمي، وجاء في شعره ما يدل على إدمانه للعلم ورفضه للمكاسب في سبيل علمه فيقول:

إنّ امرأ رفضَ المكاسب واغتدى يتعلم الآداب حـتى أحكـــمَا

فكسا وحلَّى كُلُّ أروعٍ ماجـــد من حُرِ ما حاك القريض ونظمَا

ثقة برعي الأكرمين حقوقـــــه لأحقُ ملتـــمسٍ بألا يُحـــرمَا[2]

وكان ابن الرومي غزير الشعر رحب الآفاق الشعرية، مجدّدا في الشعر، فيقول ابن رشيق فيه "وأمَّا ابن الرومي فأولى الناس باسم شاعر، لكثرة اختراعه، وحسن افتنانه، وقد غلب عليه الهجاء حتى شهر به، فصار يقال أهجى

[1]- المرزباني: معجم الشعراء، ص 183، مرجع سبق ذكره.

[2]- العقاد: ابن الرومي حياته من شعره، ص 76- 81، مرجع سبق ذكره، بتصرف.

من ابن الرومي، ومن أكثرَ من شيء عُرف به، وليس هجاء ابن الرومي بأجود من مدحه ولا أكثر"[1]، ويشير "المسعودي" أنَّ ابن الرومي كان "أول أدواته الشعر"[2]، وهذا لا يمنع من وجود نصوص نثرية لابن الرومي.

وقد جمع تلاميذ ابن الرومي وأصدقاءه ما صدر عنه من أخبار وكتابات، فنجد أبا عثمان الناجم ألَّف كتابا عن ابن الرومي، وكذلك أبا العباس أحمد بن محمد بن عبد الله بن عمار الذي ألَّف كتابا في تفضيله ومختار شعره، وجمع أخباره أبو الحسن علي بن العباس النوبختيّ في كتاب مفرد واختار شعره جمال الدين بن نبّاتة، ويبقى ديوان ابن الرومي اكبر ديوان وصلنا من الشعر القديم الذي جمعه أبو الطيب وراق بن عبدوس من جميع النسخ، فيما تأخر صدور ديوان ابن الرومي في العصر الحديث وذلك لضخامة حجمه، وقد أصدر كامل الكيلاني مختارات منه في ثلاثة أجزاء عام 1924م، والشيخ محمد شريف سليم أصدر جزأين من الديوان في فترة 1917-1922م، إلاّ أن توفر الدكتور حسين نصار على تحقيقه، فصدر في ستة أجزاء في فترة 1973م-1981م، كما صدر مشروحا في عدة طبعات مختلفة متفاوتة الدقة العلمية.[3]

يعتبر ديوان ابن الرومي من أكبر الدواوين الشعرية في الأدب العربي حيث ألمَّ بأغراض الشعر المختلفة، واهتم بديوانه عدد كبير من المحققين الذين درسوه وحصروه من ناحية عدد الأبيات والقصائد والبحور الشعرية والأغراض التي وُجدت في الديوان.

2- مظاهر الحياة السياسية

دامت الدولة العباسية ما يزيد عن خمسة قرون، بعد أن سقطت بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية على أيدي المغول، فازدهرت فيها الحياة وتلونت، صارت بغداد يتهافت عليها الناس من كل البقاع، حيث غلب عليها الطابع الفارسي والتركي، وأخذ العباسيون عنهم تقاليد الحكم، حتى توسعوا في ذلك إلى واقع حياتهم الاجتماعية من تقليد في الزي واللباس، كما أولى الخلفاء عنايتهم بالشعر والشعراء، فازدحمت قصورهم وأبوابهم بالشعراء، الذين نالوا منزلة مرموقة في قلوب الخلفاء، وقد شهد الشعر في زمنهم ازدهارا وتطورا كبيرين.

[1]- ركان الصفدي: ابن الرومي الشاعر المجدد، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، دط، 2012م، ص 31.

[2]- المسعودي أبي الحسن علي بن الحسين بن علي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح: يوسف البقاعي، ج4، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، دط، دت، ص 499.

[3]- ركان الصفدي: ابن الرومي الشاعر المجدد، ص 34- 36، مرجع سبق ذكره، بتصرف.

عاش ابن الرومي في القرن الثالث للهجرة، الذي تميز باضطراب الأحوال السياسية والاجتماعية نتيجة للصراع القائم بين العرب والفرس والترك، والفتن التي كانت تقوم داخل بيت الخلافة، فلم تنعم الخلافة آنذاك بالاستقرار والهدوء وذلك لما يحدث من تغير في مقاليد الحكم من خليفة لآخر، ويذكر "أحمد أمين" ذلك في قوله "دخل في نزاع العصبية عنصر قوي جديد، فقد كان النزاع قبلُ بين الفرس والعرب، فأصبح بين العرب والفرس والترك"[1].

وقد عاصر ابن الرومي ثمانية من خلفاء الدولة العباسية هم: الواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد الذي توفي بعد ابن الرومي بسنوات، فَعَصْرُهُمْ لم يخل من فتنة أو غدر طال رقابهم، وهدّد أمنهم وصفو عيشهم، فالقليل منهم من نجا من الخلع والسجن ومصادرة أموالهم حتى طال الأمر وزراءهم وأمراءهم الذين كانوا عرضة للتهديد والبطش من طرف الجميع، وكان أمر الدولة قائما على سوء الظن والدسيسة، والسيطرة في أمور الحكم الذي يرجع لغلبة القوي بين الفرس والترك، كما اشتدت الصراعات داخل قصور الخلفاء من رجال ونساء، وشغب الجند على قوادهم، ويرجع هذا الضعف إلى مكانة الخليفة داخل البيت العباسي[2].

في عهد المأمون دخلت العناصر الأعجمية على جيش الدولة، فلما جاء المعتصم سار على ما جاء به من سبقه من الخلفاء، ورأى أن للأتراك شدة البأس والنجدة، فأحضر منهم عددا كبيرا وأسكنهم بغداد، واستغنى بذلك عن أبناء دولته، إلا أنه نشأ صراع قوي بين جيشه بعد أن ضاق الناس الظلم منهم بسبب تعدي جند الأتراك على عامة الناس، وقد حسم الصراع للجند الأتراك، فبنى لهم المعتصم مدينة سامراء ونقل إليها الخلافة، واستغلَّ قدرتهم الحربية في القتال التي ساعدت على بناء أركان الخلافة العباسية، فرفع المعتصم في أقدارهم واصطنع منهم القواد الذي جعل مستقبل الخلافة بيدهم[3].

يصفهم ابن الرومي في شعره فيقول: [الطويل]

ترى شبهَ الآساد فيهم مُبَيِّنًا ولكنهم أدهى دهاء وأنكرُ

وجوههُم عند اللقاء وجوهها وألحاظهم ألحاظها حين تنظرُ

[1]- أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج1، ص 16، مرجع سبق ذكره.

[2]- العقاد: ابن الرومي حياته من شعره، ص 14، 15، مرجع سبق ذكره، بتصرف.

[3]- محمد الخضري بك: الدولة العباسية، ص 120، 121، مرجع سبق ذكره، بتصرف.

هُم هي، لولا إربهم وحلومهم لهم منظـــر منهـــا مَهيـــب ومخبـــرُ

لهم عُدة تكـفيهـم كـل عُدةٍ بنـاتُ المنايـــا والجـــنيُّ المدثّـــــرُ

هي القــوة الحق المسمــاة قـــوة بتسمية القــرآن فيمـــــا يفســـــرُ[1]

ابن الرومي هنا يصف وصفا موضوعيا خاليا من المدح، فهو لم يمدح أحدا من قادتهم، كما أنه لا يلبي دعوة قائد أو أحد من الوزراء إن طلبوا في أمره.

واجه الخلفاء فتنة عظيمة بين العامة من الناس والأتراك التي دلَّت على رفض طغيان الأتراك وسيطرتهم على الحكم، ومع بداية عهد المتوكل قام بإلغاء مذهب الاعتزال الذي انتهجته الدولة العباسية منذ زمن المأمون، وكان ابن الرومي آنذاك يبلغ من العمر اثنتا عشرة سنة عندما استلم المتوكل الخلافة، ولم يكن في شعره الذي أشار به إلى المتوكل سوى ما ذكره عن تشدده في أمور الدين، وكان ابن الرومي المعتزلي الشيعي الزيدي يشعر أنه في خطر كغيره من الشيعة والمعتزلة، ووصل إلى مرحلة عاش فيها الخوف والخطر ونقص الأمن الذي هدد حياته بسبب انتمائه الديني.[2]

ويذكر ابن الرومي تلك الفتنة التي يهاجم فيها المعتز الذي غدر بأبيه، حتى أنه بعد توليه الحكم بمساعدة الأتراك، إلاَّ أنَّه لم يأمن قربهم وكان دائم الحيطة والحذر، يقول ابن الرومي في هذا: [البسيط]

دعِ الخلافة يـا مُعْتَزُّ مــن كثــبٍ فليس يكســوك منها الله مــا ســلبَا

أترتَجي لُبستها من بعد خَلْعَكَها هيهات هيهات، فات الضرعَ مـا حلبَا

يا من جَنَى لأبيه القتـل ثم غـدا حـربًا لِثَائِرِه، صَدَّقْـــتَ مَنْ ثلبَـــا

يا أولياءَ عهودِ الشرِّ هَوْنَكُـــمُ مَنْ غَالَـــبَ اللهَ في سلـــطانه غُلِـبَا

لقد جزيتم أباكم حين كَرَّمَكُـمُ بالعهـد أسْوَأ مـــا يجزى البـنون أبَـا[3]

[1]- ديوان ابن الرومي: ج2، ص 58.

[2]- ركان الصفدي: ابن الرومي الشاعر المجدد، ص 59-61، مرجع سبق ذكره، بتصرف.

[3]- ديوان ابن الرومي: ج1، ص 234، 235.

في سنة مئتين وخمسة وخمسين بويع المهتدي بالله "وشهدوا على المعتز، أنَّه عاجز عن الخلافة فاعترف بذلك، ومدَّ يده فبايع المهتدي، فارتفع حينئذ المهدي إلى صدر المجلس".[1]

وقال ابن الرومي في الخليفة المهتدي هذين البيتين: [السريع]

قـــل للإمـــام المهتـدي كاسمـــه وللشبيـــه الســـر بالجَـــــهْـرِ

أنصفت بعض الناس من بعضهم فانصـــــف النـــاس مـن الدهـــــرِ[2]

وينشد ابن الرومي الخليفة المهتدي بأن يحدث الصلاح والعدل، ويحسّن أحوال الناس ويبعدهم عن الفتنة والتفرقة.

كما يذكر ابن الرومي مقتل الخليفة المهتدي فيقول: [الكامل]

كم ضربةٍ رَعْلاَءَ بـل كم طعنـــةٍ نجلاء بـــل كـــم رَمْيَـــــةٍ إذْبيـــــحِ

خطرتْ بها كفَّـــاهُ دون إمـــــامِه في ظلِّ يَـــوْمٍ للأكـــفِّ مُطيـــــحِ

سائل بذلك عَنْه حربَ المهتـدِي وكباشَهَا مـــن ناطـــح ونطيـــحِ[3]

وقال أيضا في مدح ابن ثوابة أحد خصوم المهتدي في قصيدة بائية مطلعها: [الطويل]

دعِ اللومَ، إنَّ اللومَ عونُ النوائِـبِ ولا تتجـــاوز فيـه حَـــدَّ المـــعَاتِبِ

فما كلُّ من حطَّ الرحـــالَ بمخْفِقٍ ولا كلُّ من شدَّ الرحـــال بكَاسِـــبِ[4]

ثم استلم المعتضد الحكم سنة "تسع وسبعين ومائتين، كان المعتضد شهما عاقلا فاضلا حمُدت سيرته، وَلِيَ والدنيا خرابٌ والثغور مهملة، فقام قيامًا مرضيًّا، حتى عَمرت مملكتُه وكثُرت الأموالُ وضُبطت الثغور، وكان قويّ

[1]- جلال الدين السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 560، مرجع سبق ذكره.

[2]- ديوان ابن الرومي: ج2، ص 84.

[3]- ديوان ابن الرومي: ج1، ص 337.

[4]- ديوان ابن الرومي: ج1، ص 334.

السياسة شديدا على أهل الفساد حاسما لمواد أطماع عساكره عن أذى الرعية"[1].

يقوم ابن الرومي بمدح الخليفة المعتضد في الكثير من قصائده نذكر: [الطويل]

هنيئًا بني العبـــاس إنَّ إمامكُـــم إمام الهدى والجود والبأس: أحمدُ

كما بأبي العباس أنشئ مُلْكُكُمْ كذا بأبي العبـــاس منكـــم يُجَدّدُ

إمام يظل الأمسُ يُعْمِـلُ نحـــوه تلفَّتَ ملـــهوف، ويشتاقُـــه الغدُ

يودّ الزمانُ المنقضي عنـــه أنـــه عليه لِزَامٌ آخـرَ الدهر ســـرمدُ[2]

ابن الرومي يرى الخليفة المعتضد مُنجي الشيعة من الفتن التي طالتهم فيما سبقه من الخلفاء، لقد كان المعتضد محسنا إلى بني عمه من آل أبي طالب، عَظُمَ أمره وعلى شأنه في عهده لما يميز عهده من إصلاح وهدوء وقضائه على نفوذ الأتراك.

ويقول كذلك في مدح المعتضد: [الطويل]

قدمتَ قُدُومَ البُرء بعـد سقـــامِ على دارِ إســلامٍ ودار ســـلامِ

مدينة بغداد التي كـان جَدُّكـــم تخيّرها للمُلـــكِ دار مُقـــــامِ

يُبَشِّرنَا النصرُ الذي قـد مُنِـحْتَهُ بأنك عند الله خيرُ إمـــــامِ

ظفرتَ بما تبغي وسيفُك مغـمدٌ وما كان لو جرَّدته بكهـــــامِ[3]

ويقول أيضا شعره يرجو الله أن يرعاه: [الرجز]

قل لأميـــر المؤمنين المعتـــــادْ رعايـــــةَ الله له بالمرصـــادْ:

أبشرْ بكيد الله كـــلَّ كيـــــادْ عنك، وعَمِّرْ كبقـاءِ الأطـــوادْ

[1]- ابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية، ص 256، مرجع سبق ذكره.

[2]- ديوان ابن الرومي: ج1، ص 421.

[3]- ديوان ابن الرومي: ج3، ص 256.

قد اعتضتَ بأشـــدِّ الأعضـــادْ بالله مـــــولاك لقتـل الأضـــدادْ[1]

كان ابن الرومي على اتصال مع بعض الوزراء والقواد، ولم يقترب من الخلفاء العباسيين، ولم يمدح غير المعتضد الذي كان رحيما بالشيعة، وكان موقف ابن الرومي من السياسة موقفا اتسم بالاضطراب لأسباب موضوعية وذاتية، ونذكر موقفه من المعارضة أي ثورة يحي بن عمر الثائر الزيدي الذي خرج وقاتل ضد محمد بن عبيد الله حاكم بغداد بسبب تردّي الأحوال الاقتصادية و الاجتماعية والظلم والقسوة الذي يعانيه عامة الناس في بغداد، لقد أظهر العدل وحسن السيرة حتى لقي ربه، وكانت ثورته من أجل إرجاع الحق للناس وإقامة العدل، فترك أثرا كبيرا في نفوس الشعراء، خاصة ابن الرومي الذي ثار على العباسيين، واصفا المعركة التي سقط فيها[2].

يقول: [الطويل]

أَجِنُّوا بني العباس من شنآنكـــمِ واوْكُوا على ما في العِيَابِ واشْرِجُوا

وخَلُّوا ولاةَ السوء منكـــم وغيَّهمِ فأحْرِ بِهِمْ أن يغرقوا حيث لجَّـجوا

ناظرِ لكم أنْ يرجع الحقَّ راجـعٌ إلى أهله يومًا فتشجُوا كما شجُوا[3]

ويظهر ابن الرومي غضبه لمقتل يحي بن عمر، ويعلن موقفه من السلطة السياسية في بغداد، فيقول: [البسيط]

لا تَشتموا واذكروا منجَى طليقكُمُ وجوهُكُمْ يا بني العبـــاس للعَفَـــرِ

إنَّ السيوف منـايا كـــلَّ معتـــزِمِ يلقى المنايا بعزمٍ غـــير منتشـــــرِ

بني النبي: أما ينفـــك طاغيـــةٌ مغادِرًا جَزَرًا منكـــم على جـــزرِ

بني نُتَيْلَـةَ ثَـــلَّ الله عرشَكُـــمُ كم للنبي لديكم مـــن دم هَـــدرِ

سرى إليه عـــداةُ الله فانْصَـــلتوا مستأسِدين عليهم جلدة النـــــمرِ

[1]- ديوان ابن الرومي: ج1، ص 420.

[2]- ركان الصفدي: ابن الرومي الشاعر المجدد، ص 64، 65، مرجع سبق ذكره، بتصرف.

[3]- ديوان ابن الرومي: ج1، ص 307.

مجـــاهـدين بأســيــافٍ مجـــردةٍ كأنما قصــدوا للــروم والخــزرِ[1]

من خلال أبياته يتوضح لنا عداء ابن الرومي وغضبه اتجاه سياسة الخلفاء العباسيين، الذي يرى فيهم أنهم أعداء الله ومُبطلي الحق، وأنهم قتلوا أبناء النبي، فيما يتغاضون ويتقاعسون عن قتال أعداء الإسلام من الروم والخَزْرِ.

كما يوضح ابن الرومي موقفه من ثورة الزنج التي قادها ثائر "يدعى علي بن محمد، وهو مغامر سياسي داهية (...) في مبتدأ دعوته نادى بشعارات الخوارج التي تلائم ميول الزنج النازحين تحت وطأة الظلم والاستعباد، لأنها شعارات ديمقراطية (...) لهذه الثورة أسباب كثيرة تتلخص في الوضع الطبقي المتردي لهؤلاء الزنوج"[2]، وقد عجز جنود العباسيين على إخماد هذه الثورة، فيصور لنا ابن الرومي جزعه من الحرب، فيذكر أبيات هذه القصيدة قائلا: [الطويل]

وكَيْفَ بمُشتـــــاقٍ تضـمَّن جسمَـــهَ على شوقِه مِصْرُ ومهجته مِصرُ؟

أقام الحــرب والزَّنـــج في دار غربـــــة حوادثها في أهلها القتل والأسـرُ

ومن دونــه هول، ومـــن تحتـــه ردّى وَمن فوقه سيفٌ، ومن تحته بحرُ[3]

وتطرق ابن الرومي إلى مدح الخليفة الموفق الذي قضى على ثورة الزنج بعد حروب كثيرة يقول فيه: [الطويل]

قَتَلْتَ الذي اسْتَحْيَا النساء وأَصْبَحَتْ وَئِيدَتُهُ في البَرِّ والبـــــحْرِ تَوْأَدُ

وَقَتَّـلَ أَجْـــدَالَ العِبَـــادَةِ عَنْـــوَةً وهُمْ رُكَّعٌ بَيْنَ السَّوَارِي وسُـجَّدٌ

حَصَرْتَ عميدَ الزَّنج حـتَّى تَخَاذَلَـــتْ قُوَاهُ، وأَوْدَى زادُهُ المتَـــــــزَوَّدُ

تُفَـــرِّقُ عنْـــــهُ بالمكـــائِدِ جُنْـــدُهُ وَتَزْدَادُهُمُ جُنْدًا، وجَيْشُك مُحْصَدُ[4]

[1]- ديوان ابن الرومي: ج2، ص 163- 165.

[2]- ركان الصفدي: ابن الرومي الشاعر المجدد، ص67، 68، مرجع سبق ذكره.

[3]- ديوان ابن الرومي: ج2، ص 158.

[4]- ديوان ابن الرومي: ج1، ص 380، 381.

عاش ابن الرومي تناقضات كثيرة في حياته، تعلقت بالحياة السياسية والشخصية، ويرجع هذا إلى الظروف المأساوية بين العرب وسيطرة الترك من جهة، وبين الخلفاء ومذهبه الشيعي الذي عارض أفكار وأحكام السلطة السياسية للخلفاء، فكان شديد الغضب والتذمر من تجاوزات الخلفاء وسكوتهم عن الظلم، واستبدادهم للشيعة، هذا الأمر جعله ينفر منهم ويتجنب طلب دعوتهم في الحضور إليهم، فالتزم السكوت وكتم الغيظ.

3- مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية

بعد أن اتخذ العباسيون من بغداد عاصمة لهم، واحتك العرب بالفرس، شهدت الحياة الاجتماعية تحولات كبيرة في مختلف أوجه الحياة نتيجة هذا الاحتكاك والاختلاط بين العرب والعجم من فرس وروم وغيرهم، فامتزجت الحضارات والثقافات بين الشعوب، وتركت أثرها القوي في الحياة الاجتماعية، إذ بنت إنسانا جديدا فكريا وثقافيا وعقليا، فنقل العباسيون فيما بينهم العادات والتقاليد والثقافات المختلفة وأساليب العيش من ملبس ومشرب ومأكل، وانغمسوا بمختلف طبقاتهم الاجتماعية في شتى مظاهر الترف والبذخ، يتقدمهم في ذلك الخلفاء والوزراء والقواد وما اتصل بهم من شيوخ وعلماء ومثقفين وشعراء.

ويذكر شوقي ضيف مظاهر الحضارة والترف التي تنعَّمت بها مدينة بغداد فيقول: "تفنن الخلفاء والوزراء في بناء القصور، حتى ليشبه بعضها مدنا صغرى تمتلئ بالأبنية والأفنية والأساطين والقباب والبساتين والجداول والبرك والنافورات، مع التأنق في أبوابها ونوافذها وشرفاتها وزخرفة حيطانها بالنقوش والصور وتعليق الستائر الحريرية عليها، ومع ما يموج فيها من البسط والسجاجيد والطنافس والمناضد والتحف المرصعة بالجواهر"[1].

عانى ابن الرومي من الاضطرابات الاجتماعية التي تحيط به، وأن حظ الفقير من الناس لم ينل من نعيم هذه الخيرات شيء، فيعبر عما يعيشه أصحاب الطبقة المترفة من نعيم وبذخ، الذين يتسابقون فيما بينهم إلى بناء القصور والتفنن في زخرفتها وبهرجتها، فيقول ابن الرومي في ظل هذه الظروف الاجتماعية السائدة في المجتمع العباسي التي اتسمت بالفساد والترف البالغ الذي يعيشه الخلفاء وحاشيتهم متناسين عامة الناس فيذكر شعره: [الخفيف]

أتَـرَاني دون الأولى بَـــلغوا الآ مال من شرطة ومن كتابِ؟

وتجـــــار مثل البهائـــــم فازوا بالمنى في النفوس والأحبابِ

[1]- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي- العصر العباسي الثاني-، ج4، دار المعارف، ط12، دت، ص 67.

أصبحُوا يلعبونَ في ظل دهـــر ظاهر السخف مثلهم لعـــابِ

غير مغنين بالسيوف ولا الأقـ لام في موطن غنـــاء ذبـــابِ[1]

يصور الشاعر الطبقة المترفة التي تتلذذ بالخيرات، والتي تناست عامة الشعب والدفاع عنهم وتوفير الأمن والسلام لهم والنهوض بالمجتمع، فهذه الطبقة المترفة تتكون من الشرطة التي تمثل السلطة العسكرية للدولة، والكتَّاب هم كتَّاب الدواوين الذين تحصلوا على مرتبة الوزراء ويمثلون السلطة الإدارية، والتجار هم عصب الاقتصاد فكلهم يتمتعون بالنعيم والخيرات، متناسين عامة الشعب وما يعيشه من أوضاع مزرية تنغّص عليهم الحياة.

ويقول أيضا: [الخفيف]

ويَظلُّـون في المَنَاعِـمِ واللَّـذَا تِ بين الكَوَاعِبِ والأتْـــرابِ

كم لديهم لِلَهْوِهِمْ من كـعابٍ وعجوز شبيهة بالكعَـــــابِ

أصْبَحُوا ذَاهِلِين عَن شَجَنِ النَّا سِ وإنْ كان حَبْلُهُمْ ذا اضطِرَابِ

في أمور وفي خمـــور وسُمُـــو ر وفي فاقم وفي سِنجَـــــابِ[2]

يصور ابن الرومي من خلال أبياته الطبقة الاجتماعية المترفة التي تعيش البذخ والثراء الفاحش، المنغمسين في الملذات تاركين عامة الناس في فقر وسوء حال.

ويشير العقاد أن "القرن الثالث للهجرة قرن الفوضى والترف، أو قرن الخطر والتسلية بلغ فيه كلاهما مبلغه وسرت إلى العصر جرائر العصور الأولى، فجنى ثمارها خللا في السياسة وبذخا في المعيشة"[3]، حيث كانت الطبقة الكادحة من حرفيين وفلاحين وعامة الناس يتذوقون الفقر وقسوة الدهر، فانقلبوا على الحكام ورجال الدولة وخرج منهم متمردون ومعارضون مطالبين بالحق والدعوة إلى العدل، فيذكر ابن الرومي رغبته إلى رفض هذا الواقع الاجتماعي الأليم ويدعو إلى تحسين الأحوال والمطالبة بالمساواة والإنصاف، فيقول: [الخفيف]

[1]- ديوان ابن الرومي: ج2، ص 189.

[2]- ديوان ابن الرومي: ج1، ص 189، 190- 192.

[3]- العقاد: ابن الرومي حياته من شعره، ص 20، مرجع سبق ذكره.

لهف نفسي على مَناكيرَ للنُّكـ ـرِ غضابٍ ذوي سيوف عِضابِ

تغسِلُ الأرض بالدماء فتُضحى ذات طُـــهر تُـــرابُها كالمِلابِ

من كلابٍ نأى بها كـــلَّ نـأْيٍ عن وفاءِ الكلابِ غدرُ الذئابِ[1]

ابن الرومي يتعلق برغبة الخلاص من هذا الوضع الاجتماعي الفاسد في قوله "لهف نفسي" ليصل إلى مرحلة تغسل فيها الأرض بالدماء من خلال الثورات الرافضة للوضع الاجتماعي والثائرة ضدَّ الفساد والفقر والظلم.

ويصف ابن الرومي الأعمال التي كان يقوم بها عامة الناس وما يتحملوه من ذلٍّ وظلم ومهانة، محاولا أن يظهر ثورته ضدَّ الأغنياء الذين لا يأبهون بحال هذه الطبقة الفقيرة المعدمة، منشغلين في ملذاتهم وأهوائهم، فيعبر عن هذا الواقع الاجتماعي المرير بقوله: [السريع]

رأيتُ حمَّـالاً مبينَ العـــــمى يعثر بالأكْـــم، وفي الوَهـــــدِ

مُحتَمِلاً ثِقْـــــلاً على رأْسِـــــه تضعُفُ عـــــنه قـــوة الجلْـــدِ

بين جِمَـــالات وأشـــباهِهـــا من بَشَر نَامُـــــوا عن المجْـــدِ

والبائسُ المسكينُ مستسْلِـــــمٌ أذلُّ للمـــكروه مـــــن عبْـــدِ[2]

ويصور ابن الرومي الحمَّال الذي يعاني الشقاء والعذاب وهو حاملٌ للأثقال على رأسه إلاّ أنه يرفض أن يكون عالة على أحد، فيجتهد في الحصول على قوت عيشه بكرامة، دون أن ينتبه له ولأمثاله أصحاب النعيم، ووصف الشاعر لهم بالنيام.

كما يصف ابن الرومي المتمردين من الزّنج الذين ثاروا ضد الوضع الاجتماعي المزري، مقتحمين مدينة بغداد بالسيوف ويرموهم بالنار وقتلهم للأبرياء من أطفال ونساء، يقول فيهم ابن الرومي: [الخفيف]

بينما أهلُها بأحسنِ حـــــالٍ إذ رماهـــمْ عبيدُهمْ باصـــطلامِ

دخـــلوها كأنهم قطـــــــع الليـ ـلِ إذا رَاحَ مُدْلَهِمْ الظـــــــــلامِ

[1]- دوان ابن الرومي: ج1، ص 192.

[2]- ديوان ابن الرومي: ج1، ص 452.

وحقيــقٌ بأن يُـــراع أنـــاسٌ غُومِضُوا من عدوهم باقتحـــامِ

إذْ رموْهُمْ بنـــارهم مـــن يمينٍ وشِمال وخلفِهِمْ وأمـــــــامِ

كم أغصُّوا من شاربِ بشـــاربٍ كم أغصُّوا من طاعمِ بطعـــامِ؟[1]

هذا ما يعرضه ابن الرومي من بعض النماذج التي تصف الصراع السياسي الاجتماعي الذي فتك بحال الفقراء والضعفاء.

إنَّ امتزاج العرب بالأعاجم، وأخذهم للكثير من عاداتهم وتقاليدهم وأنظمتهم نتيجة لتأثرهم الشديد بالفرس في مختلف أساليبهم في الحكم والحياة الاجتماعية من ملبس ومشرب ومجالس اللهو والغناء، فانغمس العباسيون على اختلاف مستوياتهم الطبقية في شتى أنواع البذخ والثراء، فأبدعوا في إظهار ألوان معيشتهم وحضارتهم من بناء للقصور والحصون والمأكل والمشرب والملبس والمجوهرات والحلي ومختلف الأنماط الزاهية، وسنتطرق من خلال شعر ابن الرومي إلى نماذج من ألوان هذه الحياة الاجتماعية في عصره.

أ- وصف القصور والطبيعة:

أولى الخلفاء العباسيون فائق اهتمامهم بتخطيط القصور والدور الواسعة؛ فتميزت بروعة النقوش، ومتانة العمارة، وغرست فيها البساتين الوافرة والحدائق اليانعة، وامتلأت بغداد بالساحات الواسعة التي يقام فيها استعراضات للجيش ومباريات من فروسية وسباق للخيل والمصارعة، كما وضعت المصابيح المنيرة بالطرقات، وازدحمت المساجد الكبيرة التي تعلوها مآذن شامخة، وتَزَخْرَفَت حيطانها بالنقوش وكتابة الآيات القرآنية، وامتلأت بغداد بالمدارس والمعاهد العلمية، وفُتحت فيها دور للعجزة، وكَثُرت فيها القصور المزيَّنة باللؤلؤ المنظوم والذهب الوهَّاج.[2]

ومن بين الشواهد الشعرية التي أبدع ابن الرومي في ذكرها وصف قصور بغداد ورياضها، فيقول في قصر الرُّصافة الذي بُني في زمن الخليفة المنصور شعره: [الطويل]

سقى الله قصرًا بالرُّصافة شاقني بأعلاه قصريُّ الدلالِ رُصافِي

[1]- ديوان ابن الرومي: ج3، ص 339.

[2]- عبد الكريم العلاَّف: قيان بغداد في العصر العباسي والعثماني والأخير، دار البيان، بغداد، دط، 1889هـ- 1969م، ص 09، 10، بتصرف.

أشار بقضبانٍ من الدر قُمِّعَتْ يواقيت حمرًا تستبيح عفافِي[1]

ويصف أيضا قصر الخورنق وهو قصر النعمان بن المنذر بظهر الحيرة، ويصف كذلك قصر يسمى السَدّير، كما يصف الشجر والفاكهة والثمر والمياه، ويعبّر عن الجنان والأنهار التي تجري في القصرين وتغريد العصافير، فيقول: [مجزوء الكامل]

جَمَعَ الشبـــــابَ ولَهُونـــــا فيه الخورّنقُ والسَّديـــــرُ

مبْـــدَى المنـــــــاذرةِ الذي فيه الفاكهةُ لا البريـــــرُ

كم جنـــةٍ فيـــــه، وكـــــم نهرٍ لجِريتـه خَريـــــــــرُ

من كلِّ دانيـــــة الجَـــــنَى للطير فيها قَرْقَريـــــــــرُ

يَشتقُّـــــها طامِـــي الجِمـــا م على جوانبه الغميـــــــرُ[2]

وقد دلَّ على جمال البناء وفن العمارة وهذا ما ذكره شوقي ضيف بقوله: "تكثر الأساطين في الأفنية، وتكثر الشرفات وتلحق بها بعض البساتين وبعض النافورات والبرك، وكانت مصاريع الأبواب تصنع من الخشب المحلَّى بالنقوش وتتألق النوافذ بالزجاج الملوَّن، وتزخرف الحيطان بالنقوش المستوحاة من الطير والحيوان والأشجار والأزهار، وقد يذهَّب السقف والأبواب والحيطان"[3].

ونجد ابن الرومي يصف المباني والنقوش التي تتزين بها جدران الدور وفي ذلك وصفه لدار سالم بن عبد الله بن عمر وذكره لمواد البناء من ساج وحديد ومتانته، وتزيينه بالذهب الأحمر، فيقول: [بحر المنسرح]

وَاسْعِدْ ببيت بنيتَـــــهُ أفِـــــدٍ أُسِّسَ بنيانُه على الخِيـــــرَهِ

وأُيِّد بالســـاج والحديـــــد ولم يوهَن بآجُرّةٍ ولا مَـــــدَرهِ

بناءُ حـــزمٍ أبَى لصاحبـــــــه في كل أمرٍ ركوبَـــــهُ غرَرهِ

[1]- ديوان ابن الرومي: ج2، ص 447.

[2]- ديوان ابن الرومي: ج2، ص 04.

[3]- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي-العصر العباسي الأول-، ج3، دار المعارف، القاهرة، ط8، دت، ص 44، 45.

لا يعرفُ الوهيَ والسقــوط ولا يخذُل ألواحُ ساجه دُسُــرِهِ

وعُلَّ من بعد ذاك بالذهــب الـ أحمر فأختالَ لابسًا شُهَــرِهِ[1]

وقال أيضا في تهنئة لعلي بن محمد بن الفياض بداره: [مجزوء الرمل]

دارٌ أمــــــنٍ وقــــــرارِ واعتــــلاء واقتــــــدارِ

بُنِيَّــــتْ بالمرمــــر المــــس نونِ والتــــبر النُّظــــــارِ

ولُبَــــابِ الســــاج لا بــــل بيَلَنْجــــوج القَمــــارِى

واكتست ثــــوبَ بيــــاضٍ ليلُهُ مثــــــلُ النهــــارِ

جــــنة تُذْكِــــرُ بالجنْــــ نَةِ قلــــبًا ذا اعتبــــارِ

ذاتُ بســــاتين قــــد زيَّــــ نَا بنَــــوْر وثمــــــارِ

ذا تماثيــــــل حســــــان من صغــــار وكبــــارِ[2]

يذكر ابن الرومي بناء داره من المرمر والذهب والفضة والبيلنجوج وهو عود البخور الذي استعمل في البناء والزينة مما زاد داره حسن الجمال جمالا، ووصفها بالجنة التي تغدق بالبساتين والثمار.

ويبدع ابن الرومي في وصف النوافير إذ يجعل منها صورة إنسان تحسد السماء على الماء الغزير الذي تبعثه إلى الأرض وشبه هذه النافورة بالديمة الهطلاء الذي يدوم أياما فتهطل هذه النافورة ماءا في كل ارض حتى تصل إلى نجم الجوزاء، فيقول ابن الرومي في هذا أبياته: [الخفيف]

وأذَّكِرْنِي إذا اســتثرتَ سحــابا ذات يومٍ عشيةٍ أو ضحــاءَ

فتعالت فــوارةٌ تحســدُ الخضـ راءُ إغنداقَ مائِها الغــــبراءَ

كُلَّمَا أخلفتْ سمــــاءُ زمــــانًا خلّفــتْ فيه ديمــةً هَطْلاءَ

[1]- ديوان ابن الرومي: ج2، ص 34.

[2]- ديوان ابن الرومي: ج2، ص 35، 36- 38.

سَحْسَحَتْ ماءها على كل أرضٍ بعدمـا صافحت به الجـــوزاءَ[1]

ويتغنى ابن الرومي بالطبيعة فيصف الرياض الذي تأخذه روعة نسائم الطبيعة وأغاني الطير والزهر والرياحين فيقول: [الطويل]

إذا شئتُ حيَّتني رياحينُ جنـــةٍ على سُوقها في كل حينٍ تنفَّـسُ

وإن شئتُ ألْهاني سماعٌ بمثلـــه حمامٌ تغنَّى في غصونٍ تُوَســوسُ

تلاعبها أيدي الرياح إذا جـــرتْ فَتَسمو وتَحنو تارةً فتنكَّـــسُ

إذا ما أعارتها الصِّبا حركـــاتِها أفادت بها أُنس الحياة فتؤنـــسُ

توامضُ فيها كلما تَلـــع الضحى كواكبُ يذكو نورُها حين تُشمسُ[2]

إذا شاء ابن الرومي الذهاب إلى روضة تحييه رياحينها بالعطر الذي يفوح منها وإذا يشاء يستمتع بألحان الحمام وهي على أغصانها يُؤْنس بمرورها، ويختم ويذكر الزهور المتلألأة في وقت الضحى.

ونجد شعر ابن الرومي الذي جاء يصف عالم الطبيعة من زهر ورياحين ويصف الريح والصبا، فشعره يعبر عما تخفيه نفسه داخلها من خلال معانيه التي تظهر نفس الشاعر ووجدانه ونقع على مثل ذلك في قوله يصف الروضة: [الطويل]

ومونقةِ الرواد مهتـــزة الربـــــا يحاسنُها سارٍ وغـــاد ورائـــــحُ

توقَّد فيها كلما تَلَّـــــع الضحى مصابيح تذكو حين تخبو المصـابحُ

تُضاحك نُوَّاراتُها زهرَاتـــــــها لها أرَج في نافح العطر نافـــــحُ

إذا مدَّها المهموم في صُعدائـــــه إلى قلبه انساحت عليه الجوانـــحُ

[1]- ديوان ابن الرومي: ج1، ص 38.

[2]- ديوان ابن الرومي: ج2، ص 234.

زجرت ثناء النـــاس ثم انتجعتـــه ولم يتخالجـني سَنيـــــح وبـــارحُ[1]

يصف ابن الرومي مطر الليل السار ومطر النهار بالغاد الذي يُحاسنُ هذه الروضة فينمِّي أزهارها التي تصبح كالمصابيح المتلألأة، فتتوقد بذلك نهارًا، فترسل ضحكاتها وتبعث بعطرها حتى تمُدُّ الهموم في الصعداء وتنفس عليه بالطيب والعطر.

ويصف كذلك إحدى الرياض التي يشبهها بالجنة التي تفجِّر الريحانة، والتي تهب ريحا يحرك الأغصان ويحرك الطيور معها بأصوات تعلن عن ريح الشمال فتغني على أغصانه ورقه الحمام الذي ينتشي الطرب فيقول: [البسيط]

حَيَّتْكَ عنَّا شمالٌ طاف طائفُـــــها بجنة فَجَّرَت رُوحا ورَيحانَـــــا

هَبَّتْ سُحَيْرًا فناجى الغُصنُ صاحبَه مُوَسوسًا وتنادَى الطيرُ إعلانَـــا

وَرْقُ تغنَّى على خضْـرٍ مُهَدَّلـــــةٍ تَسْمو بها، وتشمُّ الأرضَ أحيانَا

تخالُ طائِرَها نشـــوانَ مـــن طـرب والغُصنَ من هزَّةِ عِطْفَيْهِ نَشـوانَا[2]

ومن بين أوصاف مظاهر الطبيعة المتنوعة وصفه للسحاب الذي ألمَّ به ابن الرومي وصفا ومحاكاة في حركته ورعده وبرقه، يتنفس فيه الصبا وتتنفس نفحاته مسكا، ويغرد فيه الطير طربا، فيقول ابن الرومي في السحاب: [الكامل]

مُتَهلِّلٌ زِجِلٌ تحـــنُّ رواعِـــــــــدَ في حَجرتيه، وتستطيرُ بـــــروقُ

سَدَّت أوائِلُه سبيـل أواخـــــــــرٍ لم يدر سائقهنَّ كيف يســـوقُ

فسجا وأسعد حالبَيْـــــــــه بِدرةٍ منه سواعُد ثرةٌ وعـــــــــروقُ

وتنفَّستْ فيه الصِّبا فتبجســـــــتْ منه الكُلى، فأديمُهُ معقـــــوقُ

حتى إذا قُضِيتْ لقيعان المِـــــــلاَ عنه حقوقٌ بعدهنَّ حقـــــوقُ

[1]- ديوان ابن الرومي: ج1، ص 326.

[2]- ديوان ابن الرومي: ج3، ص 396.

وتَنَسَّمَــتْ نَفَحَاتُــــه فكأنـــــه مِســــكٌ تضوَّع فأره مفتـــوقُ

وتغـــرَّد المكَّـــــاء فيه كأنـــــه طَــرِبٌ تعلَّل بالغناء مشـــوقُ[1]

فهو يصف السحاب المتزاحم وفي أخر الأبيات يصف الروض الذي نما من كثرة المطر، فظهرت أزهاره، وفاح الطيب في الأرجاء وجعل الطير تتغنى فيه ويذهب في وصف الربيع، الذي تبدو معه الطبيعة مزهرة، نيرة، ملونة تجملت وتبرجت، فيقول فيها ابن الرومي ما يسر ويروق: [الرجز]

أصبحتِ الدنيا تروق مَنْ نظـــــرْ بمنظرٍ فيه جـــلاءٌ للبصـــــــرِ

واهًا لها مُصطنعًا لمن شكـــــــــر أثنتْ على الله بآلاءِ المطـــــرِ

فالأرضُ في روضٍ كأفـــواف الحِبَر نيرةُ النُّوار زهراءُ الزهـــــــــرِ

تبرجت بعـد حيـــاءٍ وخـــــــفر تبرجَ الأُنثى تصدّت للذكـــــرِ[2]

يشبه ابن الرومي الطبيعة بالمرأة ويصفها بالجمال الذي يُزيِّن الربيع من أزهارٍ ونوَّارٍ، وتبدو الطبيعة كأنها أنثى متصدية للذكر وهي متبرِّجة ومتزينة.

ويذكر في أبيات أخرى وصفه في الربيع والخريف قائلا: [الطويل]

أبى لأخي الدنيـــا التَّبَـــتُّـــلَ أنهـــا لها زيفةٌ في كل حين تزيفُهَـــــــا

إذا ما جلاها في الرياض ربيعُهـــــا يروق عيونَ الناظرين رفيفُهَـــــــا

وأخرى إذا ما أينعتْ ثمراتُهـــــــــا ورقّت حواشيها وطابَ خريفهَـــا

تراءى لنا في زُخرفين كليهمـــــــــا إذا استوجفَ الأهواءُ خفَّ وجيفهَا[3]

يرى ابن الرومي أنَّ الربيع هو جمال الطبيعة التي تسحر الناظرين ببهائها، وخريفها هو موعد الثمار اليانعة، ونضوج الخيرات، فكلا الفصلين لهما الفائدة التي تعود على الإنسان بالنفع.

[1]- ديوان ابن الرومي: ج2، ص 460، 461.

[2]- ديوان ابن الرومي: ج3، ص 66.

[3]- ديوان ابن الرومي: ج2، ص 437.

ويتنقل بين مظاهر الطبيعة إلى وصف الزهور فيقول: [المنسرح]

نَشَّرَ آذارُ في الثُّـــرى حُلـــلاً قد كان كانـونُ قبـــلُ طواهَـــا

كسا عراءَ الرُّبَـــا طَيَالســـةً خُضْرًا، وبالعَبْقَـــرِيِّ رَدَّاهَـــا

وصاغَ للأرض كُلَّ تـــاجٍ بهـــا أحسن في صُنـــعهِ فجلاَّهَـــا

أعجب ذاك السمـــاءُ فانبعثـتْ تَنثُـــر دُرًّا على مُحَيَّـــاهَـــا[1]

يصف ابن الرومي الزهور في الربيع التي تُنَشِّرُ في آذار حُللاً وتكتسي الطبيعة اخضرارًا وأزهارًا وترسل بجمالها محيي السماء.

وقال في وصف النرجس: [البسيط]

أما تراه ومَرَّ الريـــح يعطفـــه كأنه زعفـــران فـــوق كافـــورِ

إذا بدا في اختـلافٍ مـــن محاسنه أَراك كيـــف اختـــلاط النار بالنـورِ[2]

فيشبه زهر النرجس بالزعفران في لونه الأصفر، ويراه يختلط بالنار والنور.

ثم يصف ابن الرومي غروب الشمس، فيشبه الشمس بالورس ذلك النبات الأصفر، فتودع الدنيا حتى تختفي، ويتأمل النوَّار بعد مغيب الشمس وهو واضع خدَّه على الأرض كالمريض، ويصف خضرة الروض مع مجيء النسيم وتغريد الطير إلاّ أنه صور الطبيعة حزينة في غروبها الذي يوحي للشاعر بالزوال والفناء فيقول: [الطويل]

إذا رنَّقت شمسُ الأصيل ونفَّضـــتْ على الأفق الغربي ورسًا مذعذعَـــا

ووَدَّعت الدنيا لتقـضي نَحْبَهـــا وشوَّل باقي عمرهـا فتشعشعَـــا

ولاحظتِ النُّوارَ وهي مريضـــةٌ وقد وضعتْ خدًّا إلى الأرض أضرعَـا

وقد ضربتْ في خُضرةِ الروض صَفرةٌ من الشمس فاخضرَّ اخضرارًا مشعشعَا

[1]- ديوان ابن الرومي: ج1، ص 69، 70.

[2]- ديوان ابن الرومي: ج2، ص 169.

وأذكى نسيمَ الروضِ ريعانُ ظلِّـــــه وغنَّى مغنِّي الطير فيه فسجَّعَـــــــــا[1]

من نماذج ابن الرومي نلحظ أنَّه أجاد في ميزة الوصف وأبدع، فتميز بوصفه الباهر وتصويره الدقيق، مستمدا أشعاره من حياته الخاصة ووجدانه، فاتصاله بالطبيعة وحبه لها أخرج هذا الجمال في معاني وألفاظ شعرية بديعة.

ب- مجالس اللهو والطرب:

بعد أن استحوذ العرب على الحكم في مختلف الأصقاع واختلاطهم بالفرس وميولهم للبذخ والترف، أصبحت مدينة بغداد تكتظُّ بالشعراء والغناء والطرب، ولم يقتصر الأمر على طبقة دون طبقة بل تعمق المجتمع العباسي في مختلف مظاهر الترف التي أصبحت شائعة فيما بينهم وتعد من أساليب حياتهم الجديدة، فأقبل الناس من كل حدب وصوب يخوضون في الملذات والشهوات والمحرمات، واهتم ابن الرومي بوصف مجالس اللهو والطرب ومدح أصحابها، ومن قصائده في اللهو وصفه للعبة الشطرنج ومدحه لأبي القاسم التَّوْزِيّ الشِّطْرَنْجي في هذه اللعبة الذهنية التي يسخر فيها الشطرنجي ذكاءه وحِدقه في اللعب، فيقول ابن الرومي فيه: [الخفيف]

يا أخي يا أخـــا الدَّماثـــــة والرقْـ ـقَة والظَّرف والحِجـــا والدهـــاءِ

أتُرى الضَّربـــة التي هي غيـــــبٌ خُلْفَ خمسين ضربـــةً في وَحَـــاءِ

ثاقِب الرأي، نافذ الفكر فيهـــــا غير ذي فَتْرة ولا إبْطـــــــــاءِ[2]

ثم يمضي يمدح براعته في لعب الشطرنج قائلا: [الخفيف]

غلطَ الناسُ لست تلعـــب بالشِّط رنج لكن بأنفُس اللُّعبـــــــــاءِ

أنت جِدِّيهـــا، وغيرُكُـــمن يَلْـ عب، إنَّ الرِّجال غيرُ النِّســـــاءِ[3]

كما تطرق ابن الرومي إلى وصف الصيد فيقول: [الطويل]

[1]- ديوان ابن الرومي: ج2، ص 338.

[2]- ديوان ابن الرومي: ج1، ص 24.

[3]- ديوان ابن الرومي: ج1، ص 24.

وقد أغتدي للطير والطير هُجَّـعٌ ولو أوْجستْ مَغْدايَ ما بثّن هُجَّعَا

بِخلَّين تمَّا بي ثلاثة إخـــــــوةٍ جُسومُهُم شتَّى وأرواحُهمْ معَـــــا

مُطِيعين أهواءً توافت على هوًى فلو أُرسِلتْ كالنبلِ لم تَعدْ موقعَـا

إذا ما دعا منه خليلٌ خليلـــــهُ "بأفديك" لَبَّاه مُجيبًا فأسرعَـــــا[1]

الشاعر يغتدي الصيد في الصباح الباكر قبل أن يطير الطير، ويذكر أنَّه لو علم الطير بأمره على الغدو لهرب من عشه، مع أصدقائه الذي يراهم روحا واحدا في ثلاثة أجسام، فيسرد الشاعر أحداث رحلته في الصيد وما يعيشه من مغامرة وتشويق مع أصحابه في مكان جميل.

أما حالة مجالسه المتوفرة على وسائل الراحة واللهو لم تكن تخلو من الخمرة التي شاعت في العصر العباسي، وهذا ما أبرزه ابن الرومي في شعره، حيث أعطاها مكانة مهمة في ديوانه ويصف ابن الرومي الخمرة فيقول: [الكامل]

ويتيمةٍ من كَرمها ومُدِيمهـــــــا لم يُبْقِ منها الدهر غيرَ صميمهَـا

لطُفتْ فقد كادتْ تكون مُشاعةً في الجو مثلَ شُعَاعها ونسيمهَـــا

صفراء تنتحل الزجاجة لونَهَـــا فيُخالُ ذوبُ التبر حشوَ أديمهَـا

رَيْحانةٌ لنديمِها، دِرْياقـــــــةٌ لسليمها، تَشفي سقامَ سقيمهَـــا[2]

فيشبهها ابن الرومي باليتيمة التي لا ينافسها شيء في جودتها، فيصف تأثيرها على العقل واللون الأصفر في الزجاج وهي معتقة، كما يصفها بالترياق للسليم والمريض، وريحانة لنديمها.

ويقول أيضا: [الطويل]

ألا فاسقني خمرًا بصفوِ سلافـــةٍ بماء سماء، حبذا الخمر بالقطـــرِ

[1]- ديوان ابن الرومي: ج2، ص 337، 338.

[2]- ديوان ابن الرومي: ج3، ص 244.

شرابان حلاَ طائعين كلاهمـــــا ولم يأتيا كرهًا بعصر ولا حفـــــرِ[1]

فيرى أن الخمر يجلب الصفو والهدوء وكأنه العسل والقطر، سهلة التحضير.

وفي مجلس لعبد الملك بن صالح يصف ابن الرومي الخمر ورائحتها الطيبة ولونها الذي يشبه الشفق في المغيب، ويصف منظرها بالرحيق المعتق ورغوتها باللآلئ فيقول: [المنسرح]

ونحن نسقي شرابَ ذي فجـــر ثناؤه مـــن فواكـــه الزُّفْـــقِ

يلقاكَ في رقةِ الشـــراب، وفي نشْرِ الخزامى، وصفـــرة الشفـــقِ

له صريحٌ كأنـــــه ذهـــبٌ ورغـــوةٌ كاللآلئ الفِلـــــقِ

يختالُ في منظـــــر يزيِّنُـــه من الرحيق العتيق مشـــــرقِ[2]

اتسع الغناء وازدهر بفعل التفاعل بين الغناء العربي الأصيل وغناء الأعاجم وتشجيع الخلفاء لهم، فتحولت مقاصد كبرى للغناء والرقص، تنوعت هذه الفنون وتعانقت في أرجاء المجتمع العباسي وتعددت آلات العزف، وقد دلَّ ابن الرومي من خلال شعره على شغفه بالغناء والآلات الموسيقية، فيذكر في شعره تغزُّله بوحيد المغنية فيصف جمالها ومواطن الحسن فيها، وجمالها الساحر الذي يبعث في النفوس العاشقة ألَمًا تتعذب في عشقها، فيقول فيها ابن الرومي: [الخفيف]

يا خَلِيلَيَّ تَيَّمَتْني وَحيـــــــدُ ففؤادي بها مُعَـنًّى عَمِيـــــــدُ

يسهل القول إنَّها أحســـن الأشْـ ـياءِ طُرًّا، ويعسرُ التحديـــــــدُ

تتجلَّى للناظـــــرين إليهـــا فَشَقيٌّ بحسنهـــــا وسعيـــــدُ

حُسْنُها في العيون حسنٌ وحيـدٌ فلها في القلوب حُبٌّ وحيـــــدُ[3]

[1]- ديوان ابن الرومي: ج2، ص 167.

[2]- ديوان ابن الرومي: ج2، ص 467.

[3]- ديوان ابن الرومي: ج1، ص 493، 494.

كما يصف مغنية من الأتراك ويصف عيناها بالسهام التي تصيب الحشا في وقت السلم، ويصف غناءها وصوتها الجميل ووجهها فيقول: [الطويل]

فتاةٌ من الأتراكِ ترمـــي بأسهُـــم يُصِبْنَ الحشا في السَلمِ لا في المعاركِ

كأَنَّ زميَر القاصيـــاتِ أعارَهـــا شجاهُ، وسجعَ الباكيات الضواحكِ

و"بستان" بســـتانٌ يُقِرُّ عيونَنَـــا بما فيه مـــن نـــواره المتضاحـــكِ

غناءٌ ووجهٌ مونقـــانِ كلاهمـــا يهيلانِ جُولَيْ ذي الحِجى المتماسكِ[1]

وتعددت آلات العزف من طبل وصنج وغيرها فيذكرها ابن الرومي قائلا: [الطويل]

ورقاصةٍ بالطبلِ والصنـــجِ كاعـبٌ لها غُنْجٌ مِخْنَاثٍ وتكريهُ فاتـــــكِ

أتيحَ لها في جسمها رفدُ روافـــدِ وإن نالها في خصرها نَهْك ناهـــكِ

إذا هي قامَت في الشَّغوفِ أضاءها سناها فشقَّتْ عن سبيكةِ سابـــكِ[2]

ويصف الرقاصة التي تحمل الطبل والصنج بالجسم الممتلئ والخصر المنهوك ويشبه جسمها بالسبائك.

جـ- المأكل والملبس:

حفل شعر ابن الرومي بأوصاف الطعام المتنوعة، وخاصة الحلوة منها، الذي يلمُّ إليه بعاطفته، وقال يصف دجاجة: [الكامل]

وسميطـــةٍ صفـــراءَ ديناريـــــةٍ ثمنًا ولـــونًا زفها لك حَـــــــزْوَرُ

عظمتْ فكادت أن تكـــون إوزةً ونَوتْ فكاد إهـــابها يتفطَّـــــــرُ

طفِقتْ تجود بِذَوْبها جُوذابـــــة قَانِئَ لبابَ اللوز فيها السكّـــــــرُ

ياحسنَها فوق الخِوان، وبنتُهـــا قدامها بصهيرهـــــا يُتَغَرْغَـــرُ

[1]- ديوان ابن الرومي: ج3، ص 43، 44.

[2]- ديوان ابن الرومي: ج3، ص 44.

ظلْنا نقشِّر جلدها عن لحمهـــا وكأن تبرًا عن لُجَيْـــن يُقَشَّـــرُ[1]

فهو يشبه الدجاجة بالغلام الشديد ويشبه لونها الأصفر بالدينار ويصور حجمها السمين بالإوزة التي يكاد جلدها يتفطر لشدة سمنتها كما أن ابن الرومي يهيم في منظرها عند الشوي المليء بالدهون المنصهر ويشبه جلدها المقشر بالفضة.

ويصف ابن الرومي الرقائق وكان حينها مارا بخباز يضع الرقائق بسرعة فائقة فيصير العجين في يده كالكرة، ثم يراه يصير قمرا في لحظة واحدة، فشبَّه سرعة بسطها بسرعة الدائرة وهي في الماء ويقذف فيه الحجر فيبدع في تصوير حركتها فيقول: [البسيط]

ما أنسَ لا أنسَ خبازًا مـــررتُ به يدحو الرُّقاقةَ وشكَ الملح بالبصـــرِ

مابين رؤيتها في كفه كـــــرةً وبين رؤيتها قوراءَ كالقـــــمرِ

إلاّ بمقدارِ ما تنداح دائـــــرةٌ في صفحة الماء يرمى فيه بالحجـــرِ[2]

كما يصف قالي الزلابية قائلا: [البسيط]

ومُستقر على كرسيِّه تَعِـــــب روحِي الفداءُ له من مُنصَبٍ نَصِـــبِ

رأيته سحرًا يقلي زلابيـــــــةً في رقَّةِ القِّشْر، والتجويف كالقَصَـــبِ

كأنما زيتُهُ المغْلِـــيُّ حيـــن بدا كالكيمياء التي قالوا ولم تُصِـــــبِ

يُلقَى العجينُ لُجينًا في أناملـــــهِ فيستحيل شبابيطًا من الذهـــــبِ[3]

إذ يظهر شعر ابن الرومي واقعيته في الوصف، فهو يشخص مشهد قالي الزلابية بدقة، وهو على كرسيه متعب يشفق عليه ابن الرومي من تعبه فيمجِّد عمله من خلال ذكره في شعره كما أنَّه حدَّد الزمن ويذكره سحرا فيبدع في قلي الزلابية وإتقان عمله، فهي رقيقة القشر مجوفة كالقصب شبابيط كالذهب بعد القلي.

[1]- ديوان ابن الرومي: ج2، ص 41.

[2]- ديوان ابن الرومي: ج2، ص 146.

[3]- ديوان ابن الرومي: ج1، ص 246.

كما يصف حلوى اللوزينج فيقول: [السريع]

لا يُخطئنِّي منـــك لَوزينَـــــجٌ إذا بدا أعجبَ أو عجَّبَـــــا

لم تُغلقِ الشهـــــوة أبوابَهـــا إلاّ أبتْ زُلفاهُ أن يُحجَبَـــــا

لو شاء أن يذهـــــب في صخرةٍ لسهَّل الطِيب لَهُ مذهبَـــــا

يَدورُ بالنفْـــخةِ في جَامِـــــهِ دَوْرًا ترى الدُّهنَ له لولبَـــــا[1]

ثم يصف العنب الرازقي في شكله الظاهر، وهو عنب من النوع الأبيض، طويل الثمرة، يشبِّهه بالبلَّور ومذاقه مثل العسل، شفاف، لمَّاع، ينتهي برؤيته لؤلؤة تُقَرِّط آذان الحسان الحور فيقول: [الرجز]

ورَازِقِيٍّ مُخْطَـــفِ الخُصـــــورِ كأنَّه مَخـــــازِنُ البَلَّـــــورِ

لم يُبْق منـــه وهـــجَ الحَـــرور إلاّ ضياءً في ظُرُوفِ نُـــــورِ

لو أنَّـــه يبـــقَى على الدهـــور قَرّط آذان الحسان الحـــــورِ

بلا فريـــد وبـــلا شـــــذور له مذاق العســـل المِشـــــورِ

ونكهة المسك مع الكافـــــور ورقَّة المـــاء على الصـــــدورِ[2]

ويقول في الموز: [الخفيف]

إنّما المَوْزُ حينَ تمكَنُ مِنْـــــهُ كاسْمِهِ مُبْدَلاً من الميم فَـــــاءِ

وكذَا فَقْـــدُهُ العَزيزُ عليْـــنا، كاسْمِهِ مُبْدَلاً منَ الزَّاي تَّـــــاءِ

فَهُوَ الفوزُ مثلَـــما فَقْدُهُ المـــوَ تُ، لقد بَانَ فَضلُه، لا خَفَـــاءِ

ولهذا التأويلِ سماهُ مَـــــــوْزًا مِنْ أفادَ المعـــانِي الأسمـــــاءِ[3]

[1]- ديوان ابن الرومي: ج1، ص 153.

[2]- ديوان ابن الرومي: ج2، ص 63.

[3]- ديوان ابن الرومي: ج1، ص 20.

نرى الشاعر يبدل الحروف ليخرج منها دلالات الموت والفوز، وأنَّ من سمَّى الموز موزا، استوحى الاسم من اللفظتين موت وفوز في إشارة إلى ذلك إلى نفسية الشاعر التي ترتبط بالشؤم والخسارة.

تنوعت واختلفت أصناف الطعام التي أصبحت مزيجا بين ما هو تقليد من العرب وبين ما جاءت به ثقافات الشعوب الأخرى من الأعاجم، وانتشرت الثقافات المختلفة من مجالس اللهو والطرب والمشرب والمأكل في المجتمع العباسي التي تدل على الثراء والبذخ فيما صنعوه.

إذا ما انتقلنا إلى الأزياء واللباس، الذي نجده يمثِّل جزءا هاما من حضارة العباسيين الجديدة، الذين تأثروا بجيرانهم الفرس، وأصبح اللباس الفارسي من العادات الشائعة في المجتمع، فتميَّزت كل طبقة عما سواها بلباس معين يميزها، فالقاضي اختص بلباس تميزا عن غيره، وللقواد كذلك لباس خاص آخر يميزهم، وللعامة من الناس ألبستهم الشعبية التي تميزهم، وقد تطرق ابن الرومي إلى تفاصيل اللباس المتنوعة في شعره، ويذكر "الجاحظ" في كتاب "البيان والتبيين" في العصر العباسي أنه" قد يلبس الناس الخفاف والقلانس في الصيف كما يلبسونها في الشتاء إذا دخلوا على الخلفاء والأمراء (...) لأن ذلك أشبه بالتعظيم والإجلال"[1].

ويقول ابن الرومي في القلنسوة:[البسيط]

بُنَيَّ: إنَّ فُضُولَ الحَظِّ مَبْتسمـــةٌ فخذ لقوتِك بعض الحظ، واتَّـركِ

وكن قلنْسُوَةَ المملوك تحظَ بهـــا ولا تكونَنَّ نعليْ بذْلة الملـــــكِ[2].

ويقول في لبس العمامة: [الخفيف]

إنما ألبسُ العمامةَ في الصيـــف لأنِّي أروقُ أختَـــكَ فيهَـــــا

لي رأسٌ يُقـــــــرُّها لا كـــرأسٍ ما زال قرنُـــه ينفيـــــــــهَا[3]

لكل طبقة في المجتمع العباسي ما يميزها في اللباس، "فمنهم من يلبس المبطنة، ومنهم من يلبس الدَّراعة،

[1]- أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، ج3، مطبعة المدني، مصر، ط7، 1418هـ- 1997م، ص 114.

[2]- ديوان ابن الرومي: ج3، ص 05.

[3]- ديوان ابن الرومي: ج3، ص 522.

ومنهم من يلبس القباء، ومنهم من يلبس الباز بكند ويعلق الخنجر، ويأخذ الجزر، ويتخذ الجمة"[1]، في إشارة أن العرب تأثروا بالفرس وأخذوا منهم تقليد اللباس مثل الباز بكند ويعني به كساء يلقى على الكتف بالفارسية، ويذكر ابن الرومي القباء والدَّراعة أي الجبة المشقوقة المقدم، والبرنس فيقول:[الطويل]

ولا أشتهي لبس الدَّراريع والقَبـــا ولا ذاك مما أرتضي في الملابـــسِ

وأنت امرؤ ترضى بها وبلبسهـــا وقلبك مشغوف بحب البرانِـــسِ

فكم برنسٍ لم يألُ خنقًا لحلقِـــه وتحبيسه في مُظلمات المحابـــسِ[2]

ابن الرومي لا يحب لبس الدَّرارع والقبا، وينفي حبه لهذه الملابس ويبدي شغفه بالبرنس.

ثم يصف البردة فيقول: [الخفيف]

وليحاذر أُحدُوثَةَ السُّـــــوء لا منِّي لكن من أهل حَضْرٍ ومَبْدَى

والفتى مُلْبسٌ من الأمـر يسعـــي فيه بردًا، مُقَلَّدٌ منـــه عِقْـــــدَا

فليكن ما استطاع ساعي المساعي أحسن اللابسين عقدًا وبـــرْدَا[3]

هنا يحذر أحد أصدقائه من أن يحدث له سوءًا يَطَالُه من ناس البدو أو الحضر، ويطلب منه أن يكون ساعيا أفضل اللابسين للعقود والبرد، ويقول في وصف السراويل:[المنسرح]

يا قمرًا فـــوق رأســـه تـــاجُ يخجل من حسنِ لونـــه العـاجُ

إذا تَمَشَّـــى يكـــــاد يجذبـــه رِدفٌ لـــه كالكَثِيـب رَجْـــراجُ

كأنمـــا في جيوبـــه قمـــــر وفي السراويـــل منـه أمـــواجُ

إن كنت عـــني مُمَتَّعًـا بغـــنًى فإنَّ فقـــري إليك محتـــاجُ[4]

[1]- الجاحظ: البيان والتبيين، ص 114، 115، مرجع سبق ذكره.

[2]- ديوان ابن الرومي: ج2، ص 185، 186.

[3]- ديوان ابن الرومي: ج1، ص 478.

[4]- ديوان ابن الرومي: ج1، ص311.

يتبين أن الناس في العصر العباسي على مختلف مستوياتهم و مراتبهم، كانوا على جانب عظيم من الرقي الاجتماعي والحضاري، الذي بلغ اللباس وتنوعه وكثرته، وبخاصة طبقات الخلفاء والقواد ورجال الدولة والأغنياء والأدباء والشعراء، وقد حرص ابن الرومي على الوصف الدقيق لما يجري في الحياة اليومية بشتى الصور والمظاهر الحضارية والاجتماعية التي كانت سائدة في عصره.

4- مظاهر الحياة الفكرية والأدبية

تميزت الحياة الفكرية في العصر العباسي بتفتُّح ذهن الإنسان العربي الوريث لحضارات وثقافات الأمم السابقة التي احتك بها العباسيون مع الفرس وغيرهم، وتوسَّعت رقعة الفتوحات الإسلامية إلى أقصاها، فهم لم يهتموا فقط بالجانب العسكري والسياسي، فكانت لهم رغبة الاطلاع على كل ما هو جديد ونافع في مجال الفكر والثقافة بمختلف تشكُّلاتها وفنونها، وكان لهم الشغف القوي بتحصيل العلوم وتلقي المعارف، فامتزجت ثقافتهم العلمية بالثقافات الأخرى داخل الدولة العباسية، كاليونان والفرس والهند وغيرهم من الثقافات التي في معظمها ترجمت إلى العربية، وأحدثت نهضة فكرية، نضجت فيها العلوم، وازدهرت الآداب والفنون، وراجت أسواق الأدب، واتسعت الحركة الفكرية بمختلف توجهاتها، فظهر الأدباء والعلماء والمثقفون، وعظمت مجالسهم ومجامعهم، وتركَّزت الحياة الاجتماعية والفكرية في مدينة بغداد، وهذا راجع لكونها عاصمة الخلافة العباسية التي أصبحت محور الاهتمام والإقبال في مختلف البقاع والأصقاع ومقر الخلفاء، الذين أولوا اهتمامهم الكبير بالعلم والأدب، ويذكر أحمد أمين مدينة بغداد فيقول "إنها وسط الدنيا وسرَّة الأرض، والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها (...) حسنت أخلاق أهلها، ونضرت وجوههم وأنفتقت أذهانهم، حتى فضلوا الناس في العلم والفهم والأدب والنظير والتمييز (...) فليس عالم أعلم من عالمهم ولا أروى من روايتهم، ولا أجدل من متكلِّمهم، ولا أعرب من نحوييهم، ولا أصح من قارئهم"[1].

وزاد الاهتمام بالأدب منذ أن بدأ "عصر نفوذ الخلفاء العباسيين الذي بدأ فيه بناء الحضارة، وذاعت فيه ألوان الثقافة، وقامت بقيامة حركة الترجمة على ساقها، وأخذ التأثير الأجنبي يبدو بوضوح في اللغة العربية وآدابها"[2].

[1]- أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج2، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة- مصر، دط، 2012م، ص 442، 443.

[2]- عبد المنعم خفاجي: الآداب العربية في العصر العباسي الأول، ص 47، مرجع سبق ذكره.

وشهد العصر العباسي ظهور عدد كبير من الشعراء المبدعين الذين اتسمت أشعارهم بالملامح الحديثة وبقيت محافظة على الجانب التقليدي القديم، فظهر الشعراء بثقافتهم الواسعة وتأثرهم بالأعاجم والتعبير عن الحياة اليومية التي يعيشونها، فالازدهار العلمي والرقي في جميع المجالات ودفعهم إلى البحث عن ما هو جديد في موضوعات الشعر وأغراضه وتطوير المعاني الشعرية في قوة البناء والدقة في الوصف والتصوير، فانصرف الشعراء عن المعاني القديمة لتحلَّ محلَّها معاني جديدة مستمدة من المنطق والفلسفة الذي هذَّب معانيهم، وصقل إنتاجهم وخيالاتهم، وغيّر نظرتهم للأشياء، فظهر العمق والترتيب العقلي، وقلَّ الخطأ، وأصبح الشعراء يفرقون بين الحقائق والمبالغات الكاذبة، كما أنه نشأت علوم جديدة في عصر الترجمة ساعدت الشعر و الأدب في زيادة رصيده اللغوي والأدبي والعلمي.[1]

توسَّعت العلوم وألّفت الكتب، ونجد العرب لم يكتفوا بنقل العلوم عن الفرس وترجمتها فقط، فبرعوا في الطب والفلسفة والرياضيات والجغرافيا والكيمياء، وكان من الطبيعي"أن تنشط الوراقة في هذا العصر الذي كان مكتظا بالعلوم والفنون من كل صنف وعلى كل لون، وقد بلغ من ازدهار نسخ الكتب والأجور التي كانت تدفع للناسخ أن وجدنا بعض كبار العلماء والأدباء يتخذه وسيلة لعيشه هو وأسرته مثل يحي بن عدى المتفلسف المتوفي سنة 364"[2].

ومما يدلُّ على قوة النهضة العلمية في العصر العباسي كثرة العلماء والأدباء كُلٌّ في تخصصه بإفراط شديد أدَّى إلى ازدحام الكتب، "كتبٌ للفقهاء وكتب للمفسرين وكتب للقرَّاء وكتب للنحَّاة وكتب للأطبَّاء إلى غير ذلك من الأصناف، وَوُضِعَتْ كتب عامة مثل معجم الأدباء ووفيات الأعيان لابن خلكان"[3].

وكان عصر ابن الرومي قد بلغ الذروة الحضارية رغم الاضطراب السياسي، إلاَّ أنَّ الثقافة شهدت تقدما ورقيا بالغين، ففي القرن الثالث للهجرة الذي عرف صراعا فكريا ودينيا، دفع ذلك إلى التسلَّح بالثقافة للردّ على الخصوم والشكوك، والدفاع عن المعتقدات والأفكار، وقد أوشكت الكتابة أن تزاحم الشعر لأنها وجدت طريقها للشهرة والغنى، كما لم يعد الشعر شفويا كالسابق، وأصبح فنًّا يُكتب ويُعتمد على الرَّوية والتأمل وتحري الجمال والصنعة، والاهتمام بالأسلوب، ونجد ابن الرومي في القرن الثالث هجري تأثَّر بذلك وبرز في شعره بعض سمات الكتابة.

[1]- المرجع السابق: ص 62، 63، بتصرف.

[2]- شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات- الجزيرة العربية- العراق- إيران، ج5، دار المعارف، القاهرة، ط2، دت، ص 280.

[3]- المرجع نفسه: ص 281.

تمتَّع ابن الرومي بالثقافة الواسعة والذاكرة القوية التي مكَّنته من القدرة على الحفظ حتى في شيخوخته، فكان حافظا للقرآن الكريم وهو طفل صغير وكان مصدره الثقافي الأول، وتنوع شعره بالأقاصيص والمفردات والأعلام والإشارات القرآنية، موظِّفا كل هذا في موضوعات شعره من مديح وهجاء وغيرهم، فتأثر ابن الرومي بالعلوم والمعارف الجديدة وما يواكب عصره من التقدُّم والازدهار مكَّنه من القدرة على خلق إضافة لشعره.[1]

وكان عصر ابن الرومي من أزهى عصور العلم وروافده، فيه نجد الثقافة لإسلامية المدونة دون عناء، ففي القرن الثالث تمت المذاهب الأربعة في الفقه، وظهرت أقطاب الحديث كالبخاري ومسلم وأبي داود وابن ماجه والترمذي والنسائي، وأيَّدت السياسة في عهد الخليفة المتوكل أهل السنة، كما أنَّ هذا العصر لم يخل من العلوم القديمة والحديثة من علم النحو واللغة والأدب والرواية، ومن العلماء الذين عاشوا هذا القرن نجد: الفراء، الجاحظ، المبرّد والأخفش وقدامة بن جعفر وابن الأنباري وغيرهم، كما لم يُهمل التاريخ والجغرافيا ونال حصته في هذا القرن ونجد أشهر من اجتهدوا فيهما: اليعقوبي والبلاذري والطبري، وابن خردَاذبة، وابن الفقيه، وابن رسته وغيرهم، بالإضافة إلى الأطباء والفلاسفة وأمثال الرازي وابن سهل والفارابي وابن سينا، وكان علم النجوم من العلوم الحديثة التي لاقت اهتماما بالغا الذي يستعينون به في معرفة الخير والشر، والنحس والسعد.[2]

يقول ابن الرومي في وصف ابن أبي قرة بدعوى العلم والمعرفة: [مخلع البسيط]

قــولا لـــــوطٍ أبي علـــيٍّ بصريِّنا الشاعـــر المنجِّـــمْ

المنذر المضحكِ المغـــــــنِّي الكاتب المحاســـب المعلـــمْ

الفيلسوفِ العظيمِ شأنـــــــا العائفِ القائـــف المعـــزِّمْ[3]

وكان اهتمام ابن الرومي بالفلسفة واضحا منذ الصغر، يستعير الكتب ليقرأها، وقد جاء في "رسالة الغفران" "أنَّ أدبه كان أكثر من عقله، وكان يتعاطى علم الفلسفة، واستعارَ من أبي بكر بن السّرذج كتابا فتقاضاه به "أبو بكر"، فقال ابن الرومي: لو كان المشترى حَدَثا لكان عَجُولاً"[4].

[1]- زكان الصفدي: ابن الرومي الشاعر المجدد، ص 49-51، مرجع سبق ذكره، بتصرف.

[2]- العقاد: ابن الرومي حياته من شعره، ص 30- 32، مرجع سبق ذكره، بتصرف.

[3]- ديوان ابن الرومي: ج3، ص 260.

[4]- أبي العلاء المعري: رسالة الغفران، تح: عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ، دار المعارف، ط9، دت، ص 476، 477.

وفي قصيدة لابن الرومي يعاتب محمد بن المعلى أضاع كتابا قد استعاره من ابن الرومي، يقول: [الطويل]

نسختَ كتابي ثم كافأتَ نَسْخَهُ بتضييعهِ، أخلفتَ ظَنّي فيكَـــا

فقلت: أعِرني ما نسختَ أردُّه على إثْر نَسْخَيْهِ، فلم تَرتيكَـــا[1]

ويقول ابن الرومي: [الخفيف]

ثم حاولتُ بالمصيقل تصغيـــ ـري فما زدْتني سوى تعْظيـــمِ

كالذي يعكسُ الشِّهابَ ليَخفَى وهُو أدنى لهُ إلى التَّضـــريـــمِ[2]

ويشير "الجرجاني" في كتاب "أسرار البلاغة" إلى تأثر ابن الرومي بالفلسفة الهندية وأنَّه "أخذ هذا المعنى من كلامٍ في حِكَم الهند، وهو: "إنَّ الرجل ذا المروءة والفضل لَيكُونُ خاملَ المنزلةِ غامضَ الأمر، فما تبرح به مُروءته وعقله حتى يستبين ويُعرَف، كالشعلة من النَّار التي يصوِّبها صَاحبُها وتأبَى إلاَّ ارتفاعًا"[3].

كما أنَّه استمدَّ ثقافته وأفكاره من الفلسفة اليونانية، وأخرجها في صورة شعرية جديدة في غاية الدقة وروعة الأسلوب، ويشير المسعودي "ومن قوله العجيب الذي ذهب إلى معاني فلاسفة اليونانيين ومن مَهَرَ من المتقدمين قوله في القصيدة التي قالها في صاعد بن مخلد:

لما تَؤذَنُ الدنيا من صروفـــها يكون بكاءُ الطفل ساعة يوضعُ

وإلاَّ فما يبكيه منها، وإنّهـــا لأفسحُ مما كان فيه وأوســـعُ[4]

كما لا يخلو شعر ابن الرومي من المفردات والمعاني المستمدة من القرآن الكريم الذي كان مصدر ثقافته الأول فنذكر البعض من شعره، فيقول: [المتقارب]

ومن يَتَّق الله يصنعْ لـــــه ويرزقْهُ من حيثُ لم يحتســـــبْ

[1]- ديوان ابن الرومي: ج3، ص 26.

[2]- ديوان ابن الرومي: ج3، ص 329.

[3]- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تح: محمود محمد شاكر، دار المدنى، جدة، دط، دت، ص 150.

[4]- المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج4، ص 499، مرجع سبق ذكره.

جزى الله شُبَّان جيرانِنـــــــا جزاءَ الشفيق الحَفيِّ الحَـــــــدِبْ[1]

حيث أخذ من سورة "الطلاق" الآية (02) ما يتضمن "ومن يتق الله يجعل له مخرجًا".

ويشير إلى التنابز بالألقاب في شعره وهذا ما جاء في سورة "الحجرات"، فيقول: [الخفيف]

أنزل الله في التَّنابـز بالألـــــ ـقاب نهياً، فأفحشوا التـــلقيبَـــا[2]

وكان شعره غنيًّا بالمفردات والأسماء التاريخية المعرَّبة والأعجمية مثل سيف بن ذي يزن، وحب قيس ولبنى، وذكر حرب داحس والغبراء وحرب البسوس وغيرهم الكثير من الأساطير والأمثال، فجاء في شعره الذي يتضمن قيس ولبنى فيقول: [الطويل]

أيحجبُ عني عِشْرةً قد ومِقْتُها فشوقي إليها شوق قيسٍ إلى لـبنَى[3]

ويذكر في الأمثال ما جاء ذكره "عنقاء مغرب" عندما هجا أحدهم فقال: [الطويل]

تزَوَّدْ إذا آكلتهُ فهي أكلـــــةٌ وما أختُها إلا كعنقاء مُغْـــــربِ[4]

ويذكر حرب البسوس فيقول: [الخفيف]

نجدة لم تكـــن لعنترةَ ألعَبْـــ سيِّ في عصره ولا شَـــــــدَّادِهْ

وأبَرَّتْ على كُلْيب وجسَّـــــا س جميعًا وحارث وعُبـــــــادِهْ[5]

كان بالغ الثقافة، غني المعرفة والإلمام بمختلف العلوم، فعبَّر عن سعة ثقافته وتوسع معرفته، وبلغ آفاقا ثقافية متقدمة، فقال: [الخفيف]

فمتى ما أردت صاحب فحصٍ كنتُ ممن يُشارك الحكمـــــاءَ

ومتى ما أردتَ قارضَ شعـــرٍ كنتُ ممن يُساجلُ الشعـــــراءَ

[1]- ديوان ابن الرومي: ج1، ص 105.
[2]- ديوان ابن الرومي: ج1، ص 156.
[3]- ديوان ابن الرومي: ج1، ص 57.
[4]- ديوان ابن الرومي: ج1، ص 96.
[5]- ديوان ابن الرومي: ج1، ص 457.

ومتى ما خطبتَ منى خطيبًـــا جلَّ خطبي ففاق بي الخُطبـــــاءَ

ومتى حاول الرسائلَ رُسْلـــــي بلَّغْتَنِي بلاغتي البُلغـــــــــاءَ[1]

ألمَّ ابن الرومي بالمعارف والعلوم، واستوعب ألوان الثقافة المزدهرة من علوم وفنون وآداب، سخَّرها في إضافة المعاني والمفردات الجديدة التي استمدها من هذه المعارف إضافة نشيطة وجديدة لخدمة شعره، فخلق بذلك مناخا ثقافيا مميزا يتماشى مع عصره.

[1]- ديوان ابن الرومي: ج1، ص35.

الخاتمة

الخاتمة

تمَّ بحمد الله تعالى إنهاء هذا البحث الذي اشتمل على دراسة مظاهر الحياة في بغداد وتحليل شعر ابن الرومي، وقد توصلنا إلى العديد من النتائج أهمها:

- نجد العنصر التركي رغم تسلطهم، إلاَّ أنَّهم كانوا الأخف أذى ووطأة على المسلمين من الناحية الدينية، وتركزت كلّ جهودهم من الجانب العسكري والسياسي إذا ما قارنّاهم بالفرس الذين كانوا أشدَّ عداءً للسُنَّة.
- استطاع كل من البويهيين والسلاجقة إحداث الفتنة وترك أثر سيء أدّى إلى قيام الفتن الطائفية في بغداد خاصة والعالم الإسلامي عامة، وأنهم حاولوا الاستحواذ على الخلافة العباسية من خلال علاقات المصاهرة والزواج.
- تعدُّ مدينة بغداد من أقدم المدن العربية، إذ يعود تاريخها إلى الحضارات القديمة جدًا التي وُجدَت قبل الميلاد من خلال العثور على عدَّة آثار تعود حقبتها للملك حمورابي وغيره من ملوك العراق القدماء، مما يؤكد لنا أصالة وعراقة بغداد، وخير دليل هو ورود اسمها بأشكال وألفاظ مختلفة نجد منها: بكدادا وبكدادو وبكدادي وغيرها من الأسماء التي تؤكد قدم اسمها الذي يعود للعصر الآشوري.
- أطلقت عدّة تسميات على مدينة بغداد خلال العصر العباسي منها مدينة السلام والزوراء، والمدورة...
- شكلت المدينة المدورة مع ما جاورها من الرُّصافة والكرخ بنية جديدة أُضيفت لبغداد محاطة بها والمدينة المدورة كانت مركزها، فمثّلت بذلك مدينة بغداد بنية حضارية في غاية الهندسة والتألق، لتغدو العاصمة التاريخية بحضارتها وبنائها وأسطورة السامعين والمعارضين.
- إنَّ اختيار الخليفة المنصور شكلا مدورا لمدينته يدلُّ على تنظيم هندسي دقيق وتناسق فني بديع، فأنتج لنا تحفة هندسية في عالم العمارة يفتخر بها المسلمون، وكان تخطيط مدينة بغداد مُثيرا للإعجاب من قبل المؤرخين والجغرافيين والكُتَاب والشعراء، ووصفوا سحر بنائها وروعة هندستها، وجمال زخارفها.
- كان ابن الرومي كثير التطير والتشاؤم، ويرجع السبب في ذلك إلى ما واجه في حياته من مصائب وفجائع أفقدته أفراد أسرته من أبناء وزوجة وأب وأم وأخت، وبالرغم من ذلك جاء شعره جزلا قوي الألفاظ، متنوع الأغراض، ثري الروح، واسع الشعر.

- عكس ابن الرومي واقع مجتمعه الاجتماعي والسياسي من خلال شعره، وأحسن تصوير وتشخيص كل ما تقع عليه عينه أو ما يجول في خاطره، وتصوير طبقات المجتمع والتعبير عنها.
- شعر ابن الرومي منفتح على الحياة بكل ما تحتويها من حزن وفرح وبؤس وشقاء، كان سهل الألفاظ وواضحا، بعيدا عن الغموض.
- كان ابن الرومي ينحاز إلى الطبقة الفقيرة المظلومة وبهذا يمكن أن يكون متفردا عن معاصريه من الشعراء، كما وحدّ في وصفه بين المرأة والطبيعة.
- امتزاج الفرس مع العرب أدّى إلى تطور الحياة في الدولة العباسية وخاصة الحياة الفكرية التي ازدهرت فيها جميع العلوم وتفتحت العقلية العربية، وظهور الكثير من العلماء والمختصين في جميع المجالات.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أ- المدونة:

1- أحمد حسن بسج: ديوان ابن الرومي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط3، 1423هـ- 2002م.

ب- المصادر والمراجع:

1- ابن الأثير أبي الحسن علي بن أبي الكرم بن عبد الواحد الشيباني: الكامل في التاريخ، تح: محمد يوسف الدقاق، مج5، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1407هـ- 1987م.

2- أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج4،كلمات هنداوي، مصر- القاهرة، دط، 2012م.

- ظهر الإسلام، ج1، كلمات هنداوي، مصر- القاهرة، دط، دت.

3- أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان، دط، دت.

4- إيليا سليم الحاوي: ابن الرومي فنّه ونفسيّته من خلال شعره، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1980م.

5- بطرس البستاني: آداب العرب في الأعصر العباسية، دار الجيل، بيروت- لبنان، دط، دت.

6- البكري عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تح: مصطفى السقا، ج1، عالم الكتب، بيروت- لبنان، دط، 2009م.

7- الجاحظ أبي عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، ج3، مطبعة المدنى، القاهرة- مصر، ط7، 1418هـ- 1998م.

8- الجرجاني عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد النحوي: أسرار البلاغة، تح: محمود محمد شاكر، دار المدنى، جدة- السعودية، دط، دت.

9- جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة- مصر، دط، 2013م.

10-جمال حمدان: جغرافية المدن، عالم الكتب، القاهرة- مصر، ط2، دت.

11- جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج1، دار الكتب، مصر، دط، 1383هـ- 1963م.

12- الجواليقي أبي منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر: المعرب من الكلام الأعجمي، تح: ف. عبد الرحيم، دار القلم، بيروت- لبنان، ط1، 1410هـ- 1990م.

13- ابن الجوزي جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمان بن علي: مناقب بغداد، تح: محمد بهجت الأثري البغدادي، مطبعة دار السلام، بغداد- العراق، دط، 1342هـ.

- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تح: محمد عبد القادر عطا، مصطفي عبد القادر عطا، ج16، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان،دط، دت.

14- الحميري عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، دط، دت.

15- حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجيل، بيروت- لبنان، ط1، 1986م.

16- الخطيب البغدادي أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت: تاريخ مدينة السلام، تح: بشار عواد معروف، مج1، دار العرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط1، 1422هـ- 2001م.

17- ابن خلدون عبد الرحمان بن محمد: مقدمة ابن خلدون، تح: عبد الله محمد الدرويش، ج1، دار يعرب، دمشق- سوريا، ط1، 1425هـ- 2004م.

18- خلكان بن أبي العباس شمس الدين أحمد المحمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، مج3، دار صادر، بيروت، دط، دت.

19- ابن رسته أبي علي أحمد بن عمر: الأعلاق النفيسة، مطبعة بريا، ليدن، دط، 1892م.

20- ركان الصفدي: ابن الرومي الشاعر المجدد، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق- سوريا، دط، 2012م.

21- سليمان الدخيل: الفوز بالمراد في تاريخ بغداد، تح: محمد زينهم محمد عزب، دار الآفاق العربية، القاهرة- مصر، ط1، 1423هـ- 2003م.

22- السيوطي جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر: تاريخ الخلفاء، دار المناهج للنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط2، 1434هـ- 2013م.

23- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، القاهرة- مصر، ط8، دت.

24- صالح أحمد العلي: معالم بغداد الإدارية والعمرانية، دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد- العراق، ط1، 1988م.

25- طاهر مظفر العميد: بغداد مدينة المنصور المدورة، إشراف: ناجي معروف، رسالة مقدمة للحصول على درجة الماجستير، مطبعة النعمان، النجف- العراق، دط، 1287هـ- 1967م.

26- الطبري أبي جعفر محمد لن جرير: تاريخ الطبري-تاريخ الرسل والملوك-، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج7، دار المعارف، مصر، دط، دن.

27-ابن الطقطقا محمد بن علي بن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت- لبنان، دط، دت.

28- عباس محمود العقاد: ابن الرومي حياته من شعره، مؤسسة الهنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة- مصر، دط، 2012م.

29- عبد الجبار ناجي: دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت- لبنان، ط1، 2001م.

30- عبد الكريم العلاّف: قيان بغداد في العصر العباسي والعثماني والأخير، مطبعة دار التضامن، بغداد- العراق، ط1، 1389هـ- 1969م.

31- أبي العلاء المعري: رسالة الغفران، تح: عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ، دار المعارف، ط9، دت.

32- علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام-الجاهلية-الدول العربية-الدولة العباسية،مكتبة النهضة المصرية،ط3، دت.

33- علي ظريف الأعظمي: مختصر تاريخ بغداد القديم والحديث، مطبعة الفرات، بغداد- العراق، دط، 1344هـ- 1926م.

34- أبو الفدا عماد الدين إسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين: تقويم البلدان، تح: رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس، دط، 1840م.

- المختصر في أخبار البشر، ج2، المطبعة الحسينية المصرية، ط1، دت.

35- ابن كثير عماد الدين اسماعيل القرشي الشافعي: البداية والنهاية، ج1، بيت الأفكار الدولية، لبنان، دط، 2004م.

36- محمد الخضري بك: الدولة العباسية-محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية-، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 1424هـ- 2003م.

37- محمد زغلول سلام: الأدب في عصر العباسيين، نشأة المعارف، الإسكندرية- مصر، دط، دت.

38- محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، عالم المعرفة، دط، 1989م.

39- محمد عبد العظيم أبو النصر: السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط2، 2001م.

40- محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب العربي في العصر العباسي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية- مصر، ط1، 2004م.

- الآداب العربية في العصر العباسي الأول، دار الجيل، بيروت- لبنان، ط1، 1412هـ- 1992م.

41- محمود شاكر: التاريخ الإسلامي-الدولة العباسية-، ج1، المكتب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط6، 1421هـ- 2000م.

42- المسعودي أبي الحسن علي بن الحسين بن علي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح: يوسف البقاعي، ج4، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، دط، دت.

43-مسكويه أبي أحمد بن محمد بن يعقوب: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تح: سيد كسروي حسن، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1424هـ- 2002م.

44- مصطفى جواد وأحمد سوسة: دليل خارطة بغداد المفصل في خطط بغداد قديما وحديثا،مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد، ط1، 1378هـ- 1957م.

45- مصطفى عباس الموسوي: العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، دار الرشيد للنشر، العراق، دط، 1982م.

46- نبيلة حسن: تاريخ الدولة العباسية، دار المعارف الجامعية، الإسكندرية- مصر، دط، 1994م.

47- ناظم رشيد: الأدب العربي في العصر العباسي، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل- العراق، دط، 1410هـ- 1989م.

48- الهمذاني أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق: البلدان، تح: يوسف الهاذي، عالم الكتب، بيروت- لبنان، ط1، 1426هـ- 1996م.

49- اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن وضاح: البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، دط، دت.

50- ياقوت الحموي شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت- لبنان، دط،1397هـ- 1977م.

جـ- المعاجم:

1- إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، ج1، المكتبة الإسلامية، تركيا، دط، دت.

2- الجوهري، أبي نصر إسماعيل بن حماد: الصحاح، تح: محمد محمد تامر، دار الحديث، القاهرة- مصر، دط، 1430هـ- 2009م.

3- الفراهيدي، الخليل بن أحمد: العين، تح: عبد الحميد الهنداوي، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1424هـ- 2002م.

4- الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: قاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1325هـ- 2004م.

5- ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين بن مكرم الإفريقي المصري: لسان العرب، مج14، دار صادر، بيروت- لبنان، ط6، 2008م.

فهرس المحتويات

مقدمة.....أ-ب

مدخل: الامتداد التاريخي للعصر العباسي.

1- العصر العباسي الأول.....4

2- العصر العباسي الثاني.....5

الفصل الأول: مدينة بغداد كما يراها المؤرخون.

1- مفهوم المدينة.....13

2- معنى اسم بغداد.....15

3- الأصول التاريخية لمدينة بغداد. 20

4- سبب اختيار الموقع لمدينة بغداد.....22

5- بناء مدينة بغداد.....25

6- معالم مدينة بغداد.....29

الفصل الثاني: حياة بغداد كما تجلت في شعر ابن الرومي.

1- التعريف بابن الرومي.....36

2- مظاهر الحياة السياسية.....39

3- مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية.....46

4- مظاهر الحياة الفكرية والأدبية.....64

الخاتمة.....71

قائمة المصادر والمراجع.....74

فهرس المحتويات.....81

الملخص:

يعد العصر العباسي محطة هامة في التاريخ الإسلامي لما شهده من تغيرات سياسية واجتماعية وثقافية، وما عرفه العباسيون من رقي وازدهار، ولهذا العصر امتداد تاريخي حوالي خمسة قرون من الزمن.

حين اتخذ العباسيون من العراق مقرا لدولتهم أخذوا يبحثون عن عاصمة لهذه الدولة، وتم اختيار بغداد لتكون عاصمة للخلافة العباسية، فكانت مدينة بغداد من أقدم المدن التاريخية التي رسمت معالم التاريخ على مر العصور حاملة معها معاني الوجود والأصالة.

كان الشعر لسان المجتمع العباسي ووسيلته، يعبر عما يعتريه من أحاسيس ويصور ما يجري من أحداث في شتى مجالات الحياة المختلفة، ونجد من الشعراء البارزين في العصر العباسي ابن الرومي الذي كان من الشعراء الصادقين في شعرهم، حيث كان شعره مرآة عاكسة لواقع المجتمع العباسي بمختلف طبقاته، كما كان شعره ترجمة لنفسه في مختلف المجالات من الناحية السياسية والاجتماعية والفكرية.

الكلمات المفتاحية: العصر العباسي، الخلافة العباسية، مدينة بغداد، ابن الرومي.